عبد المعطي المسيري

عبد المعطي المسيري

أقاصيص من القهوة

مطبعة حلبي بمصر

للمؤلف

---

١ في القهوة والادب

٢ الظامئــــون

٣ أقاصيص من القهــــوة

---

٤ هكذا كنت تلميذا		تحت الطبع
٥ مقــالات وحــكايات		

فهرست


عبد المعطي المسيري

الاهـــداء

إلى منشىء القصة المصرية وعميدها

الاستاذ الصديق محمود تيمـــور بك

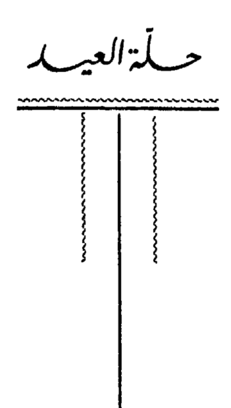
أهدى هـــذا الكتاب .

تحية وتجلة وولاء

عبد المعطى المسيرى

دمنهور فى مايو سنة ١٩٤٢

حيلة العيد



لم أقترف طوال حياتى سوى هذا الجرم الذى سأقصه عليك، وهو ليس بالقليل. ولكن يخفف من حدته، ويهون من وقعه أن عاقبته كانت محمودة. فقد تلقف القدر ما رميت به من شر وحوله خيراً وللقدر فى ذلك بدع. !

كان ذلك منذ ثمانية أعوام ، وكانت امرأتى مريضة ، وكانت حالتها تزداد سوءاً يوما بعد يوم والمصائب كالعادة لا تأتى فرادى فقد أفلس المتجر الذى كنت أعمل به وأصبحت خلواً من العمل أنفق مما كان مدخراً معى دون أن أشعر المريضة بما حل بنا شفقة بها ، وخوفاً من مضاعفة أوجاعها .

وطال المرض ، وطالت البطالة ، وأشرف المدخر على النفاد ، وأقبل شهر رمضان وأقبل معه زياط ابنى « سعيد » وعياطه ، فتارة يذكرنى « بالكعك » وتارة يلح فى طلب « حلة العيد » وصدق من قال إن الشر قد ينطوى على شىء من الخير فى

بعض الأحيان فقد كفانى مرض أمه مؤونة الاعتذار عن نفقة الكعك إذ استطاعت هى أن تقنعه بأن مرضها يحول بينها وبين صنعه ، فسكت عن هذا ووفر زياطه وعياطه لطلب الحلة .

وألجأتنى رغبتى فى إخفاء حقيقة الحال عن المريضة إلى الكذب فجعلت أعلل الغلام وأمنيه فمرة كنت أقول إننى كلفت من ينتقى له القماش من مصر ، ومرة أزعم أن صديقا ممن يعملون فى أحد محال الأزياء أنبأنى بأن تشكيلة زاهرة مشرقة من الحلل سترد إلى المحل لمناسبة العيد ، وكنت أناجى نفسى . . « من يدرى ، فقد يدركنا فرج الله قبل العيد . وأحقق لسعيد أمنيته »

وانتصف رمضان فلج الغلام فى الحاحه. وعجزت تعلاتى عن اشاعة الثقة والاطمئنان فى نفسه وحدث ما كنت أخشاه إذ انضمت الأم إلى ولدها فشاركته الحاحه فى طلب الحلة. وعندئذ استبد بى الضيق، وبدأت أشعر بثقل العبء وبالرغبة فى اظهار المرأة على الحقيقة ولكنى تداركت الأمر فآثرت كتمان ما يعتلج بين جنبى، والانفراد بما أعانى طوعا لما كان ينبجس فى اغوار قلبى من حنان الرحمة، وجعلت أستصرخ الحذق والمهارة فاهتديت إلى ارتجال ذلك الحل: قلت لهما: لقد ابتعت القماش وبعثت به إلى الخياط، وأوصيته بحياكة الحلة.

ولم أكن فى حاجة لتعيين الخياط فقد اعتدنا

حياكة ملابسنا عند الخياط الوحيد فى الحى الذى نقيم به .

وأحسست برد الراحة عندما لمحت السرور والفرح يغمرهما . ولكن راحتى لم تدم طويلا فقد فاجأتنى المرأة بما غاب عن بالى . ذلك أنها قالت لولدها « إذهب فى الصباح إلى الخياط لعمل المقاس ولا تنس أن تقول له : إجعلها واسعة وطويلة لتلائم نموك »

ولم أجد ما أعترض به . وأخذت أفكر فيما سيؤول اليه الأمر لو ذهب الغلام إلى الخياط . وقضيت الليل مقسم اللب ، مبلبل الخاطر ، أضع الحلول وأرسم الخطط ولكنى أنبذها واحدة بعد أخرى بيد أن حاين استبدا بى . وسدا على المسالك حتى خيل

إلى أنهما يصيحان بي « لم يبق إلا أن تختار أحدنا » وكان أحدهما يقضي بأن أقول الحق، وأصدم المرأة والغلام بتعطلي وخلو يدي، والآخر يغريني بعرض المسألة على الخياط ورجاء عونه على تضليل الغلام ووقف مرض المرأة بين الحلين فعز على أن يذهب مع الريح جميع ما كابدته لتجنيبها الألم فصممت على اختيار الحل الثاني .

وفي الصباح الباكر مررت بالخياط وشرحت له الأمر فوعدني خيراً ، وعلمت بعد ذلك أن الغلام جاءه فقاس له وزاد على ذلك فأراه قطعة جميلة من القماش الفاخر زاعما له أنها حلته .

وكرت الأيام ، وأقبلت ليلة العيد ، ليلة

الانفعالات المتباينة . جلسنا نتناول العشاء وكانت المرأة قد استطاعت بمعونة شبابها مغالبة المرض والتماثل للشفاء، فأخذت أظهر الفرح والاغتباط طاويا جوانحي على ما يقضم قلبي ويبهظ حشاى وكان الغلام لا يفتر ولا ينى عن الكلام حول موضوع الحلة معجبا بلونها وقماشها . وبما سيمنى به أترابه ولداته من الغيرة بسببها . فتمثل لى ما سيبوء به من الخيبة، وضعضعنى وأشأز جانبى تصورى أن ما يغمر الغلام وأمه من بشر وفرح سينقلب فى الصباح إلى حزن وحسرة، وتوجعت لما يبديه ولدى من شماتة باترابه لتيقنى من أن ذلك مقدر عليه . وآنذاك طاف برأسى خاطر شيطانى فمكثت إلى أن غرقا فى

النعاس ، ونهضت بحذر وانفلت من البيت .

جعلت أرقب الخياط ، وأدور حول دكانه متحينا الفرصة لتنفيذ ما يضطرب برأسى ، وكنت أنظر إلى الخياط وإلى ما يبديه من نشاط فيذوب قلبى شفقة على هـذا الجهد الذى سأبعثره فى الهواء وكدت أنتصر إلى ما فى قلبى من شفقة فلا أفجع الخياط فى ثمرة جهده لولا أن حانت منى التفاتة فألفيت حلل صغار الحارة قد صفت بجانب بعضها تنتظر الصباح ليبعث بها مع صبيه كالعادة . عندئذ عاودتنى المرارة واستبد بى الشر فأصررت على سرقة الحلل أو حرقها ليكمل ما دبرته من خداع . وأجنب ولدى شماتة رفاقه . ولكن يقظة الخياط وحذره كادا

يقضيان على خطتى ، وكان البرد يقرضنى ويهرؤنى هراءة شديدة ففضلت الاحتماء بالقهوة المجاورة للدكان ومواصلة الرقابة منها .

وجلست أتحين الفرصة التى لم تسنح إلا قبيل الفجر ، فقد لمحت صبى الخياط يدلف إلى الحارة ويغيب فى الظلام ، وبعد قليل انثنى الخياط إلى القهوة وقعد بالقرب من بابها يكركر فى شيشته ويراقب دكانه . ولكن سلطان النوم كان أقوى من سلطان الحذر فلم ألبث أن رأيته قد غرق فى النعاس وله العذر فقد مضى عليه أسبوع لم ينعم بالنوم فيه الا اختلاسا . وهكذا خلت الدكان وسنحت الفرصة الملائمة .

نهضت مسرعا ، وتلفت فى الطريق فلم أجد أحدا فاقتحمت الدكان . لم أفكر ولم أتردد ، كان كل شيء يجرى كأن قوة خفية تقودنى وتدفعنى . جمعت الحلل الصغيرة جميعا فوق بعضها وصببت عليها الغاز ثم أشعلت فيها النار ولذت بالفرار .

وعدت بعد ساعة فوجدت جمعا من الناس يواسون الرجل ويقلبون بين أيديهم الحلل وهم يمصمصون بشفاههم آسفين فلم أخجل من الانضمام اليهم والمساهمة فيما يبدونه من أسف وعزاء .

وانكفأت راجعا إلى البيت فرأيت ما أدهشنى وأربكنى ، رأيت زوجى تساعد الغلام فى ارتداء حلة جديدة زاهية وهما على أتم ما يكون من السرور :

والفرح ، وطفقا يشيدان بجودة القماش ، وجمال اللون ، وبشطارتي وحسن اختياري . فتلجلجت ووقفت كالمبهوت أزوي ما بين عيني كمن يعالج أزم التعبير .

وأخيراً قالت المرأة : « شف ياسيدي شف ، شف جماله فيها . اشكر أباك ياسعيد » الم أنبس بكلمة وماذا أقول ؟ وهل أعرف شيئا ؟ وعادت المرأة إلى الكلام فوجهت إلى الحديث قائلة : لا تنس بقشيش الصبي . لقد أقسم أن حلة سعيد كانت أولى الحلل التي حملها لأصحابها . وقد أعطاني هذا !! .

وناولتني مظروفا فأخذته بتلهف لأقف على سر ما أرى . كان من الخياط الذي حرقت جهده وكده

وأضعت حاله وماله، وكان يرجونى فيه أن أقبل الحلة هدية منه لسعيد ! فان لم أستطع قبولها كهدية فهو يقبل ارجاء دفع ثمنها لحين آخر كما هو شأنه مع الكثير من عملائه !!

أسقط فى يدى إذ ليس فى مقدورى رتق ما فتقته فكربنى ذلك وأشجانى وصرت أهذى وأحدث نفسى .. « أهذا جزاؤه ؟ إساءة باحسان ، ونعمة بكفران ؟ ليتنى أشعلت النار فى جسدى بدل اشعالها فى مال ذلك الرجل الكريم » .. ثم نظرت إلى الحلة فثار غضبى ، ولكنى ملكت نفسى وأنبأت المرأة والغلام بأن حريقا استعر فى دكان الخياط فأتى على حلل الصغار جميعاً فينبغى مشاركة الخياط وأولاد

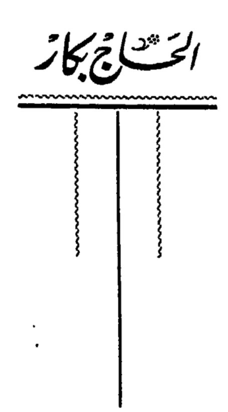
الحى فيما نزل بهم وذلك بأن نرد اليه الحلة حتى يتسنى له مرضاة الجميع . ورددت الحـــلة معتذرا ! وهل كنت أحتمل رؤ يتها على ولدى ؟ .

. . . .

وأطرق محدثى هنيهة ثم قال :ـــ

قلت لك إن القدر تلقف ما رميت به من شر وحوله خيراً ، ذلك أنه على أثر هذا الحادث ترك الخياط حرفته واشتغل بتجـارة الحبوب ففتح الله عليه وعوضه خيراً ، وانتقل إلى حال لم يكن يحلم بها لو ظل ينتظر الرزق من ثقب الابرة . . . . .

الحاج بكار



حدث هذا فى مدينة الأسكندرية سنة ١٩١٤ تلك السنة التى طاب للقدر أن يبدأ فيها صفحة جديدة فى تاريخ العالم وفى حياة المعلم بكير .

نشأ بكير هذا بأحدى القرى فى جوف الصعيد ولكنه لم يكد يتجاوز عامه العاشر حتى ضاق بالقرية

وضاقت به فنزح إلى الأسكندرية مع أحد أقاربه وأخذ يزاول مختلف الأعمال .

بدأ بجمع أعقاب (اللفائف) وانتقل إلى مسح الأحذية وجعل يرقى إلى أن شرع فى بيع الفاكهة متجولا بها فى الطرقات .

وكان عليه لينظم ميزانيته أن يمزج الجد والكدح بالتقتير والحرمان ليتمكن من دفع المخالفات التى لا آخر لها ، وليدخر من أرباحه جزءا عملا بالقول المأثور « القرش الأبيض ، ينفع فى النهار الأسود » .

وظل الحال على هذا المنوال بضع عشرات من السنين عثر خلالها بكير على بنت الحلال فتزوج

وأنجب أولاداً، وكان راضيا عن حاله تمام الرضا يعتقد أن ليس فى الامكان أبدع مما كان .

وجاءت سنة ١٩١٤ فكسدت تجارة بكير إذ أقلع الناس عن أكل الفاكهة حيث كان حسبهم أن يظفروا بالخبز ، وصار المعلم بكير كلما تغنى على فاكهته سمع الجملة التقليدية . (ياعم بكير ، إحنا لاقيين عيش !)

لم يكن بد من أن يبحث عن عمل آخر فجعل يفكر . . . وأخيراً هدته الاحلام إلى العمل الجديد ذلك أنه رأى فى منامه ذات ليلة أن عنده حمارا وأنه كلما وضع يده فى مخلة الحمار وجدها تزخر بالنقود الفضية ، ورأى أنه كلما أخذ منها النقود

تعود فتمتلىء من جديد ! . فلما أصبح جمع قروشه البيضاء المدخرة للأيام السوداء وذهب إلى السوق فابتاع عربة وحمارا ، وجعل يطوف بهما أنحاء المدينة معلنا عن استعداده لنقل الأثاث والبضائع بثوبه الأزرق وبذلك الجـــرس الضخم المعلق فى عنق الحمـــار !

ولقى فى أول الأمر رواجا واقبالا جعله يعلق على حماره أكبر الآمال ، وأخذ يمسر حلمه على ضوء ما يصادفه من رواج ، وراح يغنى بحماره ويكثر من ملاطفته والربت عليه . وكان لا يفوته اثناء ذلك أن يختلس النظر داخل المخلة فيجدها تزخر بالعلف المعد لغذاء الحمار !.

غير أن ذلك لم يدم طويلا إذ بعد بضعة أسابيع فترت الحركة ، وركد العمل ، وصار المعلم بكير فى أكثر الأيام يجىء كما يروح دون أن يفتح الله عليه بشىء ، ولكنه رغم ذلك كان متفائلا بمنامه ، لا يساوره شك فى تحقيقه .

كان يقضى أكثر الوقت مستغرقا فى حلمه سابحا فى جوه الفضى ، مسوقا على غير وعى منه إلى المخلة حيث يضع يده فيها فيجدها خاوية ، حتى من غذاء الحمار الذى كان يهبط على يده يتحسسها ويلعقها كأنه يستعطفه ويستجديه .

. . .

وعاد بكير ذات يوم بعد أن أعياه الطواف

دون جدوى فألفى أولاده يبكون ويتوجعون من الجوع ووجد أمهم تهون عليهم الأمر وتعللهم بقرب مجيئه حاملا لهم ما يأكلون . فلما جاوز عتبة الدار تهافتوا عليه ، وعلى مألوف عادتهم جعلوا يفتشون جيوبه ، ويتحسسون ثنايا ثوبه باحثين عن شيء يأكلونه ، وكان هو فى شغل عنهم فقد سقط من الاعياء على الأرض ، ولفرط الحاح الألم والجوع والتعب لم يشعر بما يدور حوله . ثم أفاق بعد قليل فألفى أطفاله قد أنقذهم النوم من قرصات ألجوع ، ونظر إلى الحمار فوجده جاثماً على الأرض يقتحم الحائط بعينيه ، وبطنه تعلو وتهبط ، فتوجعت نفسه للحمار أكثر من توجعها لأولاده ، وعلى غير

قصد منه نهض وجعل يربت عليه ، ورنا ببصره إلى النخلة ، ثم رفع وجهه إلى السماء ، ورجع فخفض بصره وتمتم بصوت خافت « له فى ذلك حكم »

وقضى الليل لم يغمض له جفن ، يتنقل ببصره بين زوجه وأولاده وبين الحمار .

وفى الصباح الباكر قام متثاقلا وهو يحرص على أن لا يحدث حركة حتى لا يزعج الصغار ، وقامت زوجه فساعدته فى صمت على إعداد العربة ثم انطلق إلى الخارج وهو يدعو الله أن يرزقه شيئا يضعه فى أفواه هؤلاء الجياع .

وسار بعربته مرخيا العنان لحماره ، لا يحثه ولا يوجهه ، تاركا إياه يمشى ويتوقف كما يحلو له وكأنما

أحس الحمار بهذه الحرية فجعل يسير بالعربة على هواه نحـــو الجهة التى يلمح فيها شيئا من بقايا الخضروات كورق الخص ، ونفاية الجزر وما إلى ذلك .

وأذن الظهر فترك بكير عربته بجانب حائط أحد المساجد ودلف إلى المسجد فتوضأ وصلى ثم مال على إمام المسجد فعرض عليه حاله مستفسراً عن السر فى معاكسة القدر له فكان جواب الأمام له « إذا أحب الله عبدا ابتلاه » .

...

انطلق يزرع الطرق ثانية بعربته ،وهو يفكر فى قول الأمام (إذا أحب الله عبدا ابتلاه) وأخذ

يقول لنفسه « اذن فالله يحبنى ! » ثم يلوك فى فمه بضع كلمات حامدا بها الله... ولكنه يعود فترتسم أمامه صورة الأمام بجبته وثوبه الحريرى الفضفاض وعمامته الكبيرة الناصعة، وعنقه السمين فيقول « ولكن.. هل الله يحبنى أكثر من هذا الشيخ ؟ » ثم يسرع فى طرد هذه الخواطر مردداً « له فى ذلك حكم » !

ومالت الشمس إلى المغيب وهو ساهم الطرف كسير الفؤاد، يستعرض أمامه منظر أولاده والجوع يفتك بهم، لقد كانو بالامس يئنون ويتوجعون فكيف بهم اليوم ؟ ثم هذا الحمار الذى برزت عظامه ؛ والذى يلهث ولا يكاد يقوى على

جر نفسه فضلا عن العربة ، أنه ينتزع قدميه من الأرض بعناء وجهد كأنما فى الأرض تلابيب من حديد تمسك بها . . .

وقر فى نفسه أن يجعل حدا لهذا البلاء ، ولأول مرة فى هذا اليوم يسيطر على قيادة العربة ويوجهها صوب البحر .

ترك العربة على الشاطىء كما اتفق ، وبدا له أن يصلى ركعتين لله قبل أن يقدم على ملاقاة ربه وبينما هو يسلم ويهم بالوقوف لينفذ ما عقد العزم عليه شعر بيد على كتفه فتلفت فوجد أمامه أحد الضباط الانجليز .

وكان الانجليزى ضابط اتصال مهمته استقبال

القوات الآتية من مختلف الأرجاء، وتوفير أسباب الراحة لهم، ومساعدة القوات التى تصدر اليها الأوامر بالسفر إلى جهات أخرى، وكان لطول إقامته بمصر وبحكم اتصاله بالموردين والمتعهدين يحذق الكثير من التعابير العربية.

عرف بكير من محدثه أنه رآه يصلى فانتظر إلى أن يفرغ من صلاته، وأنه يريد أن يكلفه بنقل بعض الحقائب والامتعة من المحطة إلى المعسكر. ثم أخذ منه رخصة العربة كالعادة وانقده عشرة قروش. وكأنما كان ثمة تجاوب بين بكير وحماره فقد انطلق الحمار بالعربة مسرعا ناسيا جوعه وتعبه يضرب الأرض بحوافره. ويمزق الفضاء بصوت

جرسه ، وكافأه بكير على نشاطه فابتاع له العلف اثناء الذهاب إلى المحطة ، أما هو فآثر أن لا يتبلغ بشيء حتى يشرك معه أولاده .

ولما إنتهى من مهمته عاد أدراجه إلى البيت حاملا معه عشاء أسرته ، وبات تلك الليلة قرير العين مرتاح الخاطر ، تاركا الغد لله يقضى فيه بما يشاء .

وفى الصباح نهض نشطا ، وشرع يعد عربته وفى أثناء ذلك عثر على حقيبة صغيرة ذات اطار من الفضة كانت قد سقطت من إحدى الحقائب فحشرت بين شقوق العربة فأمسك بها وجعل يقلبها بين يديه ، وراودته نفسه أن يفتحها ولكنه أنكر ذلك ، وأسرع إلى المعسكر ، وطلب مقابلة الضابط

ثم سلمه الحقيبة فأخذها هذا شاكراً له أمانته، وهو يتعجب فى نفسه من أمر هذا الصعلوك الحافى القدمين وكيف لم تسول له نفسه الانتفاع بها؟ ودس يده فى جيبه وأخرج قطعة نقود فضية وقدمها إلى بكير مجازاة له على أمانته، ولكن الهاما خفيا دفع بكير إلى رفض تلك القطعة مشيرا إلى أنه لم يفعل الا ما ينبغى عمله، فأكبر منه الضابط هذا الأباء، وعرض عليه أن يتصل دائماً بالمعسكر ليقوم بنقل ما يحتاج اليه الجنود.

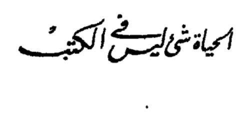
...

وشاء الله أن يجعل هذا الحادث تفسيراً لمنام بكير إذ أعقب ذلك اشتداد أوار الحرب فاتسع

نطاق عمله ، ولم تعد عربته الصغيرة صالحه لما يعهد به اليه ، فجاء بغيرها وغيرها وصارت له عشرات العربات ، ولم تنته الحرب الا والمعلم بكير قد اقتنى ضيعة وعدة عمارات ، وصار من اصحاب الشأن والنفوذ .

ولكن رغم ذلك ظل بكير محافظا على تقاليده لم يغير لون ثوبه الأزرق ، وإن كان قد غير صنفه فاستعاض عن البفتة المصبوغة بالحرير الثمين ، أما حماره السعيد فقد خصه بعطفه ورعايته فخلع عليه البراذع المزركشة ، وزينه بالحلى والأجراس المصنوعة من الفضة ، وجعله لرياضته .

شيء واحد هو الذى لحقه التغيير ، ذلك أن اسمه
أصبح فى نظر عماله ومعارفه لا يتفق ومركزه
فأهملوا المعلم بكير ، واطلقو عليه « الحاج بكار » !


الحياة شيء ليس في الكتب

الحياة شئ ليس في الكتب

كانوا جماعة من الرفاق ؛ جمعتهم غاية واحدة وألف بين قلوبهم غرض واحد هو هواية الأدب والرغبة فى الدرس والتحصيل .

وكانوا يختلفون إلى القهوة لا للتسلية وتزجية الفراغ بالوسائل المألوفة بل ليحطموا رءوسهم

بالكتب والكتاب.

وكانوا يتناوبون القراءة فيتلو أحدهم جزءا من هذا الكتاب؛ ويقرأ آخر فصلا من تلك المجلة ثم يردفون القراءة بما يحلو لهم من نقد وتعليق؛ ويظل هكذا حالهم حتى ينتصف الليل فيبارحون القهوة ويذهب كل منهم إلى بيته مصدع الرأس؛ موهن الأعصاب.

وحدث ذات مساء أن تخلف أحدهم عن الحضور وكان قد وعدهم بكتاب حديث لكاتب يحبونه فمكثوا ينتظرون الرفيق والكتاب.

وطال انتظارهم فحاولوا التلهى بورق اللعب وغيره من معدات اللهو والتسلية؛ ولكن هويتهم

القديمة للأدب أحبطت مساعيهم ولم تجعل لأية لعبة مكاناً فى نفوسهم .

وطال الانتظار فزاد ضجرهم وتبرمهم وطاف برءوسهم خاطر واحد : كيف يقضون هذا المساء؟ .
وأخيراً فتح الله على أحدهم فقال :

أرى شيئا من اثنين : اما اننا أسأنا فهم الأدب واما ان الأدب أفسد علينا الحياة ! والا فكيف يضيق أفقنا إلى هذا الحد ؟ أليس فى الحياة شىء آخر يستحق النظر والتفكير ! هل الحياة مجرد قراءة أو سآمة ؛ ولا شىء غير القراءة أو السآمة ؟ إن الكون يزخر بالمتع واللذائذ ويضطرب بالمد والجزر وينطوى على الكثير من الجمال والجلال ، ويكمن

فيه مالا حصر له من الاسرار ، ولكن عيوننا ألفت أن لاترى هذه الأشياء إلا تحت حروف الكتابة ورءوسنا التيا كتظت ـ في زعمنا ـ بالمعارف والفنون تضيق فلا تتسع لفهم الحياة على الوجه الصحيح .

وسكت « صاحبنا » إذ قاطعه أحد الرفاق بقوله « فلسفتك هذه تضاعف سأمنا وضجرنا لانها تفتح أعيننا على ساحة عريضة من الحيرة والارتباك ولسنا بحاجة لمن يغصنا بذكر ما دفعناه ثمنا لأدمان القراءة ؛ وكما يقول المثل « كلنا في الهوى سواء » فان كنت قد وقعت على ما يمسح الكآبة ويستل الضجر والسأم فهات ؛ والا فمن علينا بالسكوت »

فاستدرك « صاحبنا » على حديث رفيقه قائلا

«أو تحسب أيها الرفيق أنني قلت ما قلت بدافع العبث لقد وقعت على أشياء وأشياء ؛ في لحظة واحدة تجلى لنفسي سخف إمعاننا في القراءة وإسرافنا في ذلك إسرافا جعلنا لا نحفل بالحياة ولا نشهد مواكبها الا تحت حروف الكتابة ؛ في هذه اللحظة عرفت شيئا عظيماً ألخصه في هذه الجملة « الحياة شيء ليس في الكتب »

وعندئذ صفق له الرفاق وقال بعضهم « وبعد ؟ »

فأجاب نحن في قهوة ! أليس كذلك ! ؟

فرد أكثر من واحد على سبيل المزاح « لا » لم يحفل « صاحبنا » وعاد الى الحديث : قلت إننا في قهوة ؛ يشاركنا في السمر فيها عشرات من الرجال لكل واحد منهم فكرة ؛ ولكل رجل مثل ، ما يقره

هـــذا ؛ ينكره ذاك ؛ كل منهم يرى الأمور على قدر مزاجه وتفكيره ؛ ويحكم عليها بالقياس الى نفسه ويخلع عليها الصفات التى تناسبه ، هنا لا توجد حقيقة مطلقة ؛ وإنما يتحقق قول الفيلسوف الفرنسى الذى قرأناه بالامس « حقيقة هنا : خطأ وراء البرينيه » هنا يجلس الناس قبالة بعضهم يلعبون ويتناقشون فيخيل لنا أنهم جميعا سواء ؛ وانهم قـــد نفضوا عنهم أعباء الحياة ؛ على حـــين لو فتشنا فى نفوسهم لرأينا لكل نفس « كامـــيرا » خاصة تصور الحياة وتتلقاها وتعرضها على النحو الذى يلائمها . . . . « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » فهل فكرنا مرة فى التحدث عن هذا والعناية به ؟ .

فرد أحد الجماعة : هذه أمور من البداهة بحيث لا تحتمل التفكير فاذا حاولنا الكلام عنها عد هذا ضربا من الجدل البيزنطى .

وقال آخر : لم يبق الا أن يحدثنا الرفيق عن المناضد والمقاعد فيزعم أنها أيضاً تفكر وتناقش وأن لها آراء ومثل تتعارض مع آرائنا ومثلنا فضلا عن تعارضها مع بعضها !!

فأجاب صاحبنا : كنت على وشك أن أقول هذا وهل يستطيع خيالنا أن يسمو فيدير حوارا بين مقاعد القهوة ومناضدها ؟ فنسمع هذا « المقعد » يحكى لزميله ما وقع له بالأمس وتلك « المنضدة » حاقدة على زميلتها العامرة بالسمار ؟ ونحقق فى شكاية

« المرآة » من هذا الثقيل الذى وضع معطفه على المشجب على نحو يحجبها عن الانظار؟ وما إلى ذلك . ومن ذا الذى لايتوق الى التفوق فى الكتابة ,,الرمزية،، حتى يوفق فيهدى إلى المكتبة العربية كتاباً رائعا كهذا الذى قرأناه منذ أسبوع للكاتب المجيد « هانس اندرسون » ؟. وما دمنا نعجز عن البحث فى خفايا النفوس ولا نستطيع الكشف عن الرموز فليس أقل من أن نلاحظ المكشوف .

وفى هذه اللحظة دلف إلى القهوة ، عريس ، تحف به بطانته : وأخذ مجلسه فى الصدر كالعادة وحدثت فى القهوة حركة غير عادية فهذا الصبى أحضر باقتين من الورد الذابل الذى وضع أمام أكثر من

« عريس » وصبى آخر جاء بآنية من الفخار ملأها فحما متقدا حتى إذا وقف أمام العريس نثر فوقها البخور : وجعل يحركها ذات اليمين وذات الشمال وهو يصيح : « صلاة النبي أحسن ، النبي سعيد » . .

ووجد « صاحبنا » فى هذه « الزفة » مادة للكلام فغمز بعينه ناحية العريس وقال : لقد شهدنا الكثير من امثال هذا ؛ فهل شغلنا أنفسنا مرة بما يدور حوله وما يقال له ؟ وما يخطر ويضطرب فى رأسه ؟ انظروا كيف يجلس متزمتا يتصنع الوقار والرزانة حتى ليبدو كأنه تمثال من الرخام ؛ ما ذا عليه لو ترك كل شىء على طبيعته فجلس فى مكانه كما كان يجلس بالامس وكما سيجلس فى الغد ؟ ولماذا يحجر على

ملامح وجهه فيجعل عينيه لا تطرفان وشفتيه تزمان على هذه الابتسامة الميتة المتكلفة؟ لعلهم حين قالوا إن « ليلة العرس، لا تحسب من العمر » قدروا ما سيكون عليه العريس من جمود؛ وما ستمنى به ملامحه من شلل فأشفقوا على العمر أن تحسب منه هذه الليلة!! لو كنت فى بطانته لجعلت الأمور تجري فى غير هذا المجرى؛ ولحدثته عن شيء آخر غير تلك القصة التى تزعم بأن عريساً قتل قطة اعتدت على طعامه ليرى زوجه مبلغ خشونته والتى يلخصونها فى قولهم ... « بسك من ليلة عرسك »!!

ثم انتقل « صاحبنا » فأدار الحديث عن المنضدة المجاورة للعريس؛ وكان يجلس عليها رجل ينكركر

فى شيشته ، وكان قد جعل ظهره للسامرين واتجه بوجهه إلى الشارع ؛ وكانت يده لا تفتر ولا تنى عن الحركة ؛ فمرة يفتل بها شاربيه ؛ ومرة يصلح بها منديل جيبه ؛ وينقلها من المنديل إلى رباط الرقبة ثم إلى الطربوش ؛ . أما بصره فيختلج فى الطريق ثم يستقر على الحائط المجاور للقهوة .

لحظ « صاحبنا » هذه الحركات فأشار لاخوانه وقال : انظروا إلى هذا أيضاً ؛ أقسم أن فى الأمر قصة ، أنظروا إلى النافذة المواجهة ؛ هاهى تفتح أنظروا .... هاهى البطلة !!

وسكت « صاحبنا » لأنه وجد أن الكلام لا يصلح فى هذا المقام ؛ وإن الملاحظة أمتع من

الوصف . . . وراح الرفاق يرقبون .

. . .

وحضر الرفيق الغائب يتأبط كتابه فهتفوا به : دع الكتاب !! فى الحياة أشياء كثيرة ليست فى الكتب .

فأجاب قائلا :

حقا يارفاق ؛ فى الحيـاة أشيـاء كثيرة ليست فى الكتب ؛ ما أمتع أن يسير المرء والمطر يتساقط وما أبدع أن يشهد الأنسان الطبيعة حين تفلت من عقالها وتثور عناصرها لتعلن للكون عن روعتها وسلطانها لقد عودتنـــا الكتب الأحتماء بها ؛ فنحن نلجأ اليها أثناء البرق والرعد ونحسب أن فى ذلك أمانا ومتعة فنحرم أنفسنا من مشاهد الطبيعة الخليقة بالنظر

والتأمل والتفكير .

وهنا يقول أحدهم : أظن أن الكتاب الذى أحضرته معك يشير إلى هذا فقد تحدث مؤلفه عن الطبيعة فأجاد فى تصويرها ؛ فماذا علينا لو قرأنا وصفه وتصويره ؟

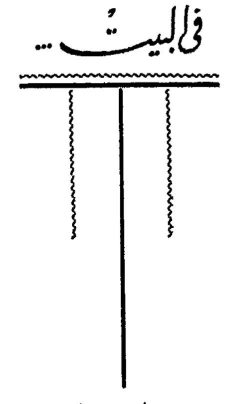
وهنا يصيح « صاحبنا »

يا هؤلاء ؛ لقد رجعتم إلى ضلالكم القديم ؛ إن من يعالج تأمل الاشياء وفهمها عن طريق الكتب كمن يريد أن يوقع على ناى من القصب أنغام الفلك ؛ هيا بنا نواجه الطبيعة ؛ فنصافح المطر بوجوهنا ؛ ونعانق الرياح بصدورنا ؛ وننصت إلى العناصر وهى تنشد :

هيا . . . فالحياة شىء ليس فى الكتب . . .

في البيت ...

في البيت ...



ـ حماده ، حماده .

ـ . . . . . .

ـ حماده . قم . قم ياحماده

ويتحرك « حماده » ببطء وحذر حتى لا تؤذى حركته ذلك الطفل الصغير الذى يقاسمه فراشه ، ثم

يعود فيغط ثانية فى نومه. ولكن اليد التى تدفعها العادة إلى هزه تمتد ثانية إلى كتفه على نحو لا يستطيع أن يكيفه لأنه يختلف باختلاف الحالة التى تكون عليها أعصابه، فهو حينا يراه مداعبة، وحينا آخر يراه رثاء، وتاره يطمئن اليه، وطوراً يضيق به، وهو فى هذه المرة أقرب إلى السخط منه إلى الرضا لأنه لم ينل حظه من النوم كما ينبغى فقد رجع من عمله بعد انتصاف الليل، وكانت الليلة شديدة البرودة وكانت الريح تعصف بقسوة جعلته لا يتلقف أنفاسه إلا بكثير من العناء. وكان لابد له أن يشغل نفسه أثناء السير بأى شيء يفكر فيه ليهون عليها مشقة المشى فقفز إلى خاطره هذا السؤال: « هل من الممكن أن

يوفق العلم إلى شيء يجعل الأنسان فى غنى عن التنفس؟

ولكنه استسخف هذا الخاطر فنزعه وألقى به . . ! إلى أين ؟ . . .

وهدأت الريح فشرع صاحبنا يتنفس تنفساً لذيذاً عميقاً أزاح عن صدره ما ثقل عليه ، وسبقه خياله إلى بيته فأخذ يفكر فى غرفته الدافئة التى تشيع فيها الحرارة المنبعثة من أنفاس عديدة !! يستطيع أن يعرف عدد الآدميين : ولدين وامرأة ، أما المخلوقات الأخرى فليس إلى حصرها من سبيل ، فهى تتألف من صنوف مختلفة من الحيوانات كالكتاكيت وصغار البط وما إلى ذلك مما يؤلف جيشاً كبيراً يظل يجرى ويتواثب ، ويكر ويفر طول النهار حتى

تضيق به جوانب الدار ، فاذا جن الليل كف عن الاضطراب وأخذت كل فرقة تحتل ثكناتها فتقنع الكتاكيت بتلك الرقعة الصغيرة تحت السرير ويكمش البط فى قفصه تحت النافذة ، ويسكن الحمام إلى بيته الصغير فوق سطح الدولاب ، دولاب الكتب !!.

وخيل لحماده أنه يصغى إلى زقزقة هذه المخلوقات التى كان ينفر منها ثم عاد فراض نفسه على الصبر والاحتمال ، وانتقل من التفكير فى ذلك إلى جانب آخر من الغرفة حيث يربض مكتبه الذى يأنس به فيشعر عند جلوسه اليه أنه أزاح عبئا ثقيلا كان ينوء به ، وراح يستذكر تلك السويعات الحلوة التى

قضاها بجواره بجسمه بينا روحه تحلق فى أنحاء مختلفة وعصور متفاوتة، وتلك اللحظات السحرية التى كان يحس فيها بأن كائنا آخر يعيش فى أعماقه قد انطلق به إلى عوالم جديدة.

...

وانتهى إلى البيت فطرق الباب ثم أعاد يده إلى جيبه ليقيها البرد، وكان لتوقفه عن المشى أثر فى شعوره بشدة البرد فتوهم أن زوجه أبطأت فى هذه المرة فعزم على تأنيبها ولكن سرعان ما التمس لها العذر ... لماذا لا يجعل للباب مفتاحا حتى لا ينتظر ولا يزعج المرأة فى مثل هذا الوقت وهذا الجو ؟.

وفتح الباب، ودلف حماده إلى صحن الدار

والمرأة تتبعه فى صمت لا يشوبه إلا صوت أسنانها وهى تصطك كدقات الساعة، واحتوتهما الحجرة فأما هى فقد شغلت بتهيئة المصباح على نحو يتيح له القراءة وأخذ هو يخلع ملابسه، ثم دار ببصره فى زوايا الغرفة واستقر به نحو الفراش، وقطعت زوجه حبل السكوت بصوتها الذى يميزه البرد بغنة يطرب لها حماده، قالت وكأنها تتسائل: الدنيا برد ؟

فلم يزد صاحبنا على ترديد تلك «الحاءات» التى اعتدنا أن نعبر بها عن شعورنا بالبرد، وحتى هذه «الحأحأة» لم تسلم من ملاحظته فطفق يسأل نفسه: لماذا اخترنا «الحاء» للتعبير عن البرد دون غيرها من حروف الهجاء ؟ نقول : حـ . حـ . حـ . فلم لا

نقول خـ . خـ . خـ أو نـ . نـ . نـ ؟

وكان فى موازنته بين هذه الحروف يحرص على أن لا يسمع المرأة إلا ما ألفته وهو حرف الحاء !! خوفا من أن تظن به الظنون !.

وشجعها ما يبديه صاحبنا من تأثر بالبرد فعرضت عليه أن يقرأ وهو فى الفراش ، وراق له هذا الرأى فأجاب عليه بأن صعد إلى السرير وتمدد فى حـــذر حتى لا تلمس أطرافه الباردة ذلك الصغير العزيز الذى يغط فى النوم . ولم يطاوع هزة التأثر التى اعترته إثر رؤيته وجه الطفل والتى كانت تلح عليه فى تقبيله لم يطاوع رغبته خوفا من تيقظ الطفل لأنه يريد أن يقرأ ويقظة الطفل تفسد عليه الأمر ، ثم هو يريد

شيئاً آخر يؤثره على القراءة وعلى الأشياء جميعا يريد أن يطيل النظر إلى وجه الطفل وهو غارق فى نومه لينعم بمشاهدة تلك البراءة السمحة ، وليعنى بمراقبة شفتيه وهما تزمان وكأنه يبكى ، وتنفرجان وكأنه يبتسم ، تلك الحركات اللطيفة التى تصور بصدق قسمات الوجه فى حالتى الخوف والاطمئنان والتى كثيراً ما سمع حماده أمه وهى تؤكد له أن هذه الحركات تعبر عن حالات خاصة يراها الصغير فى أحلامه ، فالطفل إذا بكى يكون قد سمع هاتفاً يقول له . . . « أبوك مات ! » وإن تبسم يكون قد سمع الهاتف ينبئه « بموت أمه » !! .

وعلى الرغم من أن حماده يتأفف من هذه

الأوهام ويستنكرها فهو يشعر فى أعماقه بالخوف عندما يبدو الصغير وكأنه يبكى !! ...

...

بينما كانت المرأة تعنى بنقل المصباح وتعالج تثبيته فى مسمار طويل وضع بجانب الفراش كان حماده يعبث بيديه تحت طيات الفراش ليتخير كتاباً من هذه الكتب التى يؤثرها فيدسها فى الفراش ليسهل عليه تناولها ، والتى يحتال للحصول عليها بشتى الطرق ، ومختلف الوسائل بحيث لا يعوقه عن قراءتها عائق ، ولا يقف فى طريقه اليها حائل ، فهو يبتاعها إن استطاع ، فان لم يستطع يستعيرها ، فان لم يوفق يسرقها ! كل طريق عنده مشروع مادام يؤدى

إلى روما ! ! وإذا تورط اعتذر بهذا « البرغوث » الذى يضطرب فى أذنه عند صدور كتاب جديد أو عندما تهفو نفسه إلى كتاب قديم .

. . .

خيم السكون على الغرفة حيث استسلم الجميع للنوم ومضى حماده فى قراءته ، وكان قد نظر فى الساعة التى لاتفارق معصمه فوجدها الثانية والنصف فعزم على أن لا يقطع فى القراءة أكثر من نصف ساعة حتى ينهض نشطاً وليتجنب لوم الطبيب الذى حتم عليه أن يقتصد فى القراءة وخاصة اذا كان راقداً حتى لا يضاعف ألم عينيه . ولكن تلك الصور الرائعة التى تفنن « اندريه جيد » فى عرضها فى كتابه الانسانى

الخالد « السيمفونية الريفية » أنسته نصائح الطبيب وصرفته عن النظر مرة أخرى إلى الساعة . وهل يملك أن يفكر فى شىء آخر وهو يشاهد أبطال « جيد » وهم يلعبون بنظام ، ويمثلون المشاعر المختلفة بدقة وبراعة كما تتفنن الطبيعة فى اسباغ الألوان المتنوعة على الزهور والثمار ؟ .

هل يملك وقد التقى بالفتاة « جــرترود » التى أسرفت الطبيعة فى التنكيل بها أن يشغل بشىء آخر عن تتبعها وهى تتقدم نحو الكمال فتشف أمامها الأشياء وترى ببصيرتها ما يعجز عنها المبصرون ؟ .

ياالله ! ! من عهد بعيد لم يسعد حماده بقراءة شىء له من السلطان عليه مثل ما لهذا الكتاب .

كان أول أمره يقرأ كثيراً ويتأمل قليلا فكان لضيق أفقه ينعم بما لكثير من الكتاب من أفق ضيق محدود ، فلما استقام له أن يقرأ فى صحيفة الحياة راعه الفرق العظيم بين ما فيها وما فى الكثير من الكتب فأفقده ذلك ما كان بينه وبين ما يقرأ من تجاوب .

ولم تكن له حيلة فى الاقلاع عن الاطلاع فكان يقرأ ليجمع الحسرة إلى الحسرة ، والخيبة إلى الخيبة ، ولم تعد عيناه تتفتح الا على ساحة عريضة من الحيرة والاضطراب ، وظل أسير تلك الحيرة زمنا طويلا إلى أن اعترض طريقه « جيد » فأعاد اليه « بسيمفونيته » نعيمه المفقود ، نعيم التجاوب بين

القارىء وما يقرأ ، أعاد اليه شعوره بالنشوة والسعة والامتلاء، فكان لفرط إعجابه بالكتاب يتحسر على كل صفحة يطويها ويود لو يطيل عندها الوقوف متأملا فيما يرى من جلال وجمــــال ، ولكن إيمانه بعبقرية « جيد » كان يضاعف أمله فى الصفحة التى تليها ، إلى أن انتهى إلى ذلك المكان البديع الذى يتمع فى طرف « الغابة » والذى وصفته « جرترود » وصفاً دقيقاً ، وصورته تصويراً ملائكيا بقولها : « تقوم من خلفنا ومن حولنا ، وفوق مستوى رءوسنا أشجار التنوب الهــــائلة ذات الطعم المائل إلى الصنوبر والسوق الضاربة إلى حمرة الرمان ، والاغصان الطويلة الافقية السمراء التى تئن كلما هب عليها الهواء

وثناها ، وينبسط أمامنا ككتاب مفتوح المرعى الفسيح المخضوضر اللون ، الذى تكسبه الظلال زرقة حين تخيم ، والشمس صفرة حين تبرز ، وكلمات هذا الكتاب الجلية البارزة هى أزهار من كف الذئب ، وشقائق النعمان ، وكف السبع ، وزنابق سليمان البديعة ، تأتى الابقار لتتهجى حروفه بأجراسها وتهبط الملائكة لتقرأ فيه ، ما دامت عيون الناس مغلقة . . . وفى نهاية الكتاب أرى نهراً كبيراً كأنه من لبن تكسوه غلالة رقيقة من البخار والضباب يغطى هوة هائلة من الأسرار الغامضة ، وليس له من شاطىء آخر غير جبال الألب الفتانة » . . .

. . .

إلى هنا وأغلق حماده عينيه ووضع الكتاب على وجهه وراح يتمثل هذا المكان الساحر وكأنه يعيش فيه؛ لم ينتبه؛ ولم يرجع عن دنيا الخيال إلا عند سماعه صوت مؤذن الفجر وهو يقول: « الصلاة يا مؤمنين الصلاة » ...

عند ئذ لم يتذكر أنه قوى على الاصغاء إلى تتمة الأذان. كل ما يذكره أن الكتاب ملق بجانب رأسه وأن زوجه تصيح به!.

- قم ياحماده .. قم ....

سُمّار الظلام

سُمّار الظلام

أرخى الليـــل رواقه على القهوة فغرقت فى الصمت والظلام ، وأخذت صفوف المقاعـــد والمنـاضد تنصت فى اطراق واهتمام إلى (المرآة) التى انطلقت فى الحـديث عمـا وقع لهـا أثناء النهـار والليل . عن الوجوه التى تطلعت اليهـا مشرقة

مستبشرة، والتى حملقت فيها بفضول وتقطيب، وعن العيون التى صوبت اليهـا نظرات مختلفة تنطوى على معـان شتى من التمنى والرجاء، والخبث والرياء وعن الشفاة التى تتقلب بين المط والزم والتبسم لتتخير كل منهـا النحو الذى يكفل لهـا حسن الوقع والتـأثـير .

وختمت المرآة حديثها متسائلة :

(ماذا لو تـكاشف الناس ؟ أو لو رزقوا جميعـا القدرة على قراءة النفوس من الوجوه ؟) .

وعندئذ ردت عليها (الساعة) :

(كنت تفقدين ياعزيزتى سلطانك ، إذ لا تعـد للناس حاجة اليك) .

وكانت الساعة قد اكتلمت دورتها فشرعت تدق فى أذن الزمن : تن . تن . تن . ثم عادت فى وقار إلى سيرها البطىء ، ووسوستها الخافتة ، تحصى بهما على الزمن أنفاسه ! ولو أرهفت أذنيها لسمعت أحد المقاعد يهمس لزميله :

(لو سمعت ساعتنا سخرية القمر لأصيبت بخبل يريح الناس من ثرثرتها وثقلها)

...

وكان فى أقصى شمال القهوة مقعد هرم تتهالك أجزاؤه ، ولكنه يتماسك خجلا من زملائه وإشفاقا على نفسه من شماتتهم ، وكان قد مضى عليه عهد بعيد وهو فى مكانه لا تلمسه يد ، ولا يقربه

انسان ، ضنت عليه القهوة بالترميم والتجديد عندما عبثت به يد البلى ، وساقته إلى هـــذا المنفى فى أقصى الشمال حيث تخيم العتمة ليلا ونهـارا فقبع يصارع ما يلح عليه من وهن بما يذكـره أيام عهده بالحياة والنور إلى أن كان مساء تلك الليلة إذ آثره أحد الرواد فاختاره للجلوس عليه .

جاء الرجل بعد الغروب فتبارت المقاعـــد فى التطلع والتبسم لأغرائه ، ولكنه صدف عنهـــا جميعا واقتحم الركن المنبوذ بعينيه ثم اتجه اليه منحيا عن طريقه تلك المقاعد ، ومديده فأمسك بها المقعد الحزين الذى كان يرقص فرحاً وخجلا .

وجلس الرجل برفق حيث أدرك وهن عظام

المقعد ، وتماسك المقعد وحبس أنفاس ضعفه ليتيح لصاحبه ما يبغيه من دقة التفكير والتأمل فقد عرف من شرود نظراته ، وانطـــواته على نفسه أنه من الشعراء !!

وطالت صحبتهما فلم يفترقا الا عند ما لم يكن من ذلك بد إذ جاء الشرطى معلنا انتهاء السهرة ليذكر الرواد أن عليهم أن يعودوا إلى بيوتهم !

وهكذا قدر للمقعد الحزين أن يقضى ليلة ممتعة ردت اليه اعتباره فلم تقتحمه أعـــين المقاعد وقت أن جاء دوره فى الكلام ، ولم ينكس رأسه ليجاوزه الدور إلى الصف الذى يليه ـ كعادته ـ بل مال برأسه قليلا إلى وراء ، وفى تؤدة ووقار قال :

زملائى الاعزاء .

منذ زمن بعيد لم نسمع شيئاً جديداً . كل ما نفتأ نردده معادا ، ولنا العذر فى ذلك فقهوتنا يختلف اليها العلم والجهل ، والغنى والفقر ، والنعيم والبؤس والحب والبغض ، وما إلى ذلك مما تحدثنا عنه حتى سئمناه ، وقد كان خليق بنا أن نلوذ بالصمت إلى أن نشهد ما يستحق الذكر ، ولكن للأسف قد سرت الينا عدوى الثرثرة وحب الكلام من سادتنا والآن يازملائى الاعزاء لأول مرة أحدثكم عن الشعر ، وطبيعى إن قولى (لأول مرة) سيغضب الكثير من المقاعد التى تعتقد أن أصحابها من الشعراء ، ولكنى أرجو أن تهونوا على أنفسكم

وأن ترجئوا همسكم ولغطكم فستعلمون بعد قليل أن ما جال بخاطر شاعرى الذى سعدت به هـذا المساء لم يكن من الطراز الذى ألفناه ، بل كان فنا سماويا اتمنى لو يتـاح لـــكم نقله إلى رجال الفن لعلهم يتأثرون بمعانيه واتجاهاته .

إلى هنا كان الضجر قد ألح على (المؤائد) فقد خشيت أن يسترسل المقعد فى الـكلام فيدركـها الصباح قبل أن تشترك فى هـذا السمر فقاطعته إحداها قائلة :

سلامتك أيها الرفيق ، أكبر الظن أن الأيام قـد أحوجت سمعك إلى ترجمان ! الا تذكر أننا قد اتفقنا من قبل على اغفال الـكلام عن الفن ، حيث اتهينـا

إلى الحكم بأن لا نفع ولا رجاء منه ! وبذلك كنا أحسن ادراكا لحقائق الأمور من الناس ؟

فأجاب المقعد : كيف كان ذلك ومتى ؟

فقالت المائدة :

فى ليلة عاصفة كنا نسمر كالعادة ؛ ودار حديثنا حول الفن - استغفر الله - بل حول أسبابه ونتائجه فألفينا الناس قد أجمعوا على أن الفن يساعد على تخفيف ويلات الأنسانية ؛ ويحبب اليها الحق والجمال ؛ ويعمل على إثارتها نحو الخير والمحبة والكمال ؛ ثم بحثنا فى هذا فوجدناه من الأوهام والأباطيل ؛ فالناس كانوا وما زالوا يصنعون الفن - أو يلهمونه على حد تعبيرهم - من عهد افلاطون

إلى الآن وإلى ما شاء الله ومع ذلك فالبشرية لم تتأثر به بل على النقيض كلما كثر الفن وشاع أمعنت فى الشر وتفننت فى الايذاء، وأسرفت فى الأنانية ، وقد انتهينا أيضاً إلى أن الفن مرض وبيل يصيب بعض الناس ومصيبة هذا المرض أن صاحبه يتلذذ به فلا يسعى إلى الشفاء منه ، بل يشيد بفضله ، ويتخذه قناعاً يوارى به ضعفه ، موهما الناس ، وموهما نفسه أنه من العظماء ، ثم يسير فى آخر القافلة يجتر آلامه وأمراضه ، يحثه ويدفعه لفظ خادع كالسراب اسمه . . . الخلود !

من أجل ذلك قررنا غض النظر عنه وعن المصابين به .

وسكتت المائدة فالتفت المقعد الحزين إلى المقاعد المجارة وسألها :

أحقا ما تدعيه المائدة ؟

فأجابته المقاعد :ـ حقا ؛ ولا يحتاج إلى سؤال !

عندئذ ملكه التأثر فوجه الكلام بعنف إلى الجميع قائلا :

لست استطيع أن أتصور أو احتمل دنيا بلا فن !

فرد عليه أكثر من واحد : وما الذى يمسك بك ؟ مت أيها الرفيق !!

واستدركت المائدة قائلة :

أجل مت أيها الرفيق لتنعم بمعاشرة افلاطون ورفائيل وبتهوفن وشكسبير ومن اليهم !!

فقال المقعد بصوت متهدج :

هذا بالضبط ما سأفعله عند ما تتاح لى أول فرصة سأنتحر ؛ سأنقض بمجرد أن تلمسنى يد انسان !

فأجابته المائدة :

حسنا تفعل ؛ وعند لقائك رجال الفن لا تنس أن تقول لهم بلساننا : إن الأنسان هو الأنسان مع فارق طفيف ؛ هذا الفارق هو : إن انسان الغابة كان يقتل ليعيش ، وانسان المدنية يقتل رغبة فى الظهور والثراء !! .

وعندئذ قاطعها المقعد قائلا :

على رسلك ، فكثيراً ما يحول الفن بين الأنسان ونزعة الشر ؛ فالأنسان حين يصنع الفن

يتجرد من طينته ؛ ينقلب إلى مبدع ؛ إلى مقلد أصغر للخالق الأكبر ؛ وما إلهاماته الا انعكاس لأسلوب الخالق فى نفسه ؛ وفى لحظات الألهام هذه تكن له قوة خارقة ؛ لو لم تتحول فنا لكانت للشر عوناً على خراب هذا الكون . هكذا هو الانسان حين يصنع الفن ؛ فأما حين يتذوقه ؛ وتتجاوب نفسه معه ؛ فعندئذ يرهف حسه ؛ وتسمو مشاعره ، ويصفو وجدانه وفى هذا مافيه من استعلاء للخير على الشر .

وقد كرم الله الفن ؛ وهدى الناس إلى ما يكمن فيه من خير ومتاع ؛ أبدع سبحانه وتعالى فى تصويره للثواب والعقاب ؛ والجنة والنار ؛ كما أبدع فى خلق السموات والارض ؛ والبحار والجبال ؛ ثم وصف

لنا كيف خلق ذلك كله ؛ وما خلقه الا بالحق .

هذا فن الخالق ؛ أبدعه وهدى الناس اليه ؛ وإلى بديع صنعه بقوله : انظروا ؛ تأملوا ؛ تمتعوا !!

وبدأ الأنسان ينظر ويتأمل ؛ فتأثر فشرع يقـــلد !! . . .

وسكت المقعد ليفسح المجال للساعة التى شرعت تدق ؛ وأحصى السمار دقاتها فاذا بها ست ؛ فعرفوا أن قد أدركهم الصباح ؛ فسكتوا عن الكلام المباح !!

أثناء الغارة

أثناء الغارة

لو كانت الأمور تجرى على هوى الأنسان أو كان إدراكها بالتمنى، لتمنى (ماجد أفندى) أن لا تمر ليلة دون أن تحدث بها سلسلة من الغارات ليتسنى له لقاء محبوبته (ثريا) - كما اتفقا - أثناء الظلام !!

وتفصيل الأمر أن ماجد أفندى يسكن فى الطابق الثانى من المنزل السادس فى شارع القلعة وهذا المنزل يتألف من أربع طبقات، ويضم بين جدرانه عددا يتراوح بين الثلاثين والاربعين من الرجال والنساء والاطفال، وليس بين الجميع من يحذق القراءة غير ماجد أفندى الذى لا يحضر إلى المنزل ولا يغادره إلا متأبطا مظروفه الكبير الذى يحتوى على كمية لا بأس بها من الاوراق وعلى زجاجة حبر صغيرة، وقلمين أو ثلاثة، وهذه هى كل عدته ورأسماله ككاتب عمومى.

وألف ماجد أفندى عند عودته نهاراً أن يتريث عند أول السلم ليلقى نظرتين خاطفتين: الاولى

سماوية لينظر هـــل ثريا هناك فى النافذة ، والثانية أرضية فيما يحمل من صحف وأوراق ، فان وجد أن ثريا تطل من النافذة أطال النظر فى الصحيفة وسرعان مايحيط به أهل الدار يسألونه عن الاخبار وعما وقع ، وما ينتظر أن يقع ، ويشرع هو فى الاجابة ، فيلقى الفزع مرة ، ويشيع الامن أخرى !!
وليس ثمة شك فى أن من يرى ماجداً على أبواب المحكمة يستجدى الزبائن ، أو داخل غرفها يتملق الموظفين ، ينكر تماماذلك الشخص الذى يسيطر تمام السيطرة على أهل ذلك المنزل . ففى المحكمة ماجد الذى لا شخصية له ، والذى يقابل الأهانات ونظرات الازدراء بالتبسم والتوسل والاعتذار ، أما هنا فهو

لأفندى المنتصب القامـــة ، الذى يختلس أسلوب
ـجل القانون و ثقته بنفسه ، وطريقة كلامه ، والذى
يتحدث عن الحـرب ومصيرها كأنه أحد مديرى
:فتها وشئونهـا ... وليس من يدرى ، هل الكبت
يقسره أعصـابه على الخضوع فى المحكمة هو الذى
يجعله متقنا لهذا الألقاء التمثيلى فى المنزل؟ أم أنه يستمد
لثقة من تينك العينين ، وذلك الوجـه المشرق الذى
يطل من فوق مصغياً لحديثه ، ومراقبا حركاته ؟ ...

ثم يصعد إلى حجرته بعد أن يدع من يحيطون
به مطمئنين أو خائفين كما يحلو له !! ويأخذ فى تناول
طعامـه الذى يكـون قـد أحضره معه محشوراً فى
مظروفـه الكبير الذى يسع كل شىء ! فاذا فرغ من

الأكل شرع يهىء لنفسه الشاى ، ويروح يمضى ساعة ممتعة ، حيث يحلم وهو يرنو إلى سحب الدخان التى تعقدها لفافته بثريا وقد ضمها إلى صدره وأشبعها عناقا وتقبيلا .

...

ولكن لأمر ما شاءت الاقدار أن تمزح مع ماجد وتسخر منه ، فبعد أن كانت صفارة الأنذار بالخطر تدوى كل ليلة مرة أو مرتين ، إذ بها تقلع عن الصفير أسبوعين كاملين ! كأنما قد هدأت الحالة ولم يعد ثمة حرب !

وهكذا أمن الناس بعض الشىء واستبشروا ما خلا ماجد ! وكيف يأمن ، وكيف يسر وقد

نصح سكان المنزل أن يهبطوا جميعا إلى تلك القاعة الفسيحة المظلمة فى الطابق الأرضى ليقوا أنفسهم شر القنابل التى ستتساقط على المنزل فتدكه ولا يسلم من أذاها إلا من يتحصن فى تلك القاعة !! تلك هى الخطة التى رسمها ماجد ليتيح لنفسه مقابلة ثريا أثناء الغارة حيث يسود الظلام والارتباك. وكان واثقاً من أن الجميع سيعملون بنصيحته لثقتهم به، وايثارهم للسلامة. ولكن هاهى الأيام تمر دون حدوث غارات الأمر الذى أراح الجميع، وكدر صفوه هو !!

وفى الليلة الرابعة من الأسبوع الثالث دوى صوت النذير، فتعالت الضجة، وشاع الاضطراب. وتسابق سكان المنزل فى الهبوط إلى حصنهم المأمون.

هذا بينما كان ماجد واقفا وراء باب غرفته يدخن بفرح ونشوة ، ينتظر أن تأتى ثريا فتدق بابه كما اتفقا ولكن اللغط بدأ يخف ، وصوت الأقدام الهابطة كاد ينقطع ، ولما تحضر ثريا بعد ، فوجل قلبه ، واستشعر اليأس ، ولكنه لم يلبث أن سمع نقراً خفيفاً على الباب ، فكاد قلبه يقفز من مكانه ولكنه تماسك وفتح الباب ، وأمسك يد ثريا محاولا جذبها إلى الغرفة ، ولكنها تمنعت فى صمت وجذبته إلى الخارج فطاوعها خوفا من أن يكون فى إثرها أحد من السكان ، وأخذا يهبطان السلم لاهيين عن أزير الطيارات ، وقصف المدافع، بما كانا فيه من لذة ومتاع !

وبعد قليل دوت صفارة الأمان ، واشتعلت أعواد الثقاب من أسفل السلم ؛ وما أسرع ما ابتعد العاشقان ؛ حيث جعلت ثريا تعبث باصابعها فى عينيها شأن من أفاق من رقاد لذيذ وحيث انكفأ ماجد على حذائه كأنه يعالج وضع أقدامه فيه ، ثم رجع إلى غرفته مظهراً الفرح بانتهاء الغارة فتوافد عليه السكان يستوضحونه الأمر فى شأن ما سمعوه لأول مرة من اصوات المدافع ؛ فانطلق يهول لهم الأمر مؤكداً أن الساعة قد حانت ؛ وأن وقت الهزل قد فات ؛ ولم يبق إلا وقت الجد والحذر .

وفى الليلة التالية لم يكد السكان يأوون إلى مضاجعهم حتى دوت الصفارة ؛ وتعالت الضجة

وتسابقت الاقدام على درجات السلم .

ولم يطل انتظار ماجد فقد سمع نقراً على الباب ولكنه لم يكد يضع قدمه خارج الغرفة حتى شعر بيد تتحسس فخذه فحاول أن يمسك صاحبتها ولكنه لم يكد يفعل حتى صاحت صارخة ؛ وفى عين الوقت أطلقت صفارة الأمان ؛ وأشعلت أعواد الثقاب واستطاع ماجد ان يرى أم ثريا ؛ كما استطاعت هى أن تراه !! ووجما هنيهة ؛ وارتسم على وجهيهما مزيج من الفزع والدهشة ؛ ولأول مرة يكتشف ماجد ما يكمن فيه من لباقة وسرعة خاطر ؛ فقد نظر إلى أخت ثريا الصغيرة وقال : إن (لولا) قرصتنى فحاولت أن أمسك بها لأداعبها كالعادة فأخطأت !!

وكان العذر واضحاً ووجيهاً لأن لولا تخلفت عن أمها ودقت الباب لتنبه ماجداً ؛ وهمت أمها بقرصها فوقعت يدها على فخذ (صاحبنا) وحاول هذا بدوره أن يقبض على لولا - كما يزعم - فقبض على امها !!

وهكذا هضم الجميع ذلك العذر واتخذوا من هذه الحادثة تفكهة يتندرون بها ويضحكون منها ...

أما (ماجد) و (ثريا) ففوق تندرهما وضحكهما شرعا يبحثان عن وسيلة أخرى غير النقر على الباب !!

الحياة في القهوة

الحياة في القهوة

كان المطر يهطل ، والريح تدوى ، وكانت الغيوم المتكاثفة تحجب حقيقة الوقت حتى أوشك (ع . . .) على إساءة الظن بساعته عند ما رآها تدنو إلى السابعة ، ولكنه لم يكد يتخطى زقاقه الضيق وينطلق إلى الشارع ، حتى وجد كل شيء ينبىء عن

صدق الساعة ، فهؤلاء باعة الكعك يصيحون معلنين
عن كعكهم الشهى ، وفطوره اللذيذ مع اللبن والشاى
وهذا بائع البليلة تلتف بعربته حفنة من الصبية الذين
يعملون بمحالج القطن وهم يرتعدون من البرد بينا هو
منتصب القامة ، مشمر الساعدين ، يحرك بليلته بتلك
المغرفة النحاسية الطويلة فيتصاعد منها الدخان
الكثيف الذى يغرى الناس ويجعلهم يقعون على
البليلة كما يقع الذباب على العسل !! وبين كل لحظة
وأخرى يدوى صوت الرجل حيث يتغنى بمزايا
اللبن والسمن والجوز واللوز الذى يضيفه إلى بليلته
وها هى طلائع القرويين تبدو من بعيد حاملة إلى
المدينة الحليب الصابح ، والملانه الخضرة الملانه

والجزر الذى هو أحلى مذاقا من العسل .

وعلى مسافة قصيرة من بائع البايلة يقف بائع التين الذى رأى من اتقان الصناعة أن يطلق لحيته وأن يكثر من الصلاة على النبى ثم يعقب على ذلك فيسرد ما فى تناول التين من صحة وشفاء ، يقول ذلك كله بصوت خافت ضعيف أثناء تغنى بائع البايلة فاذا سكت هذا صاح بائع التين بكل مايملك من قوة (التين . . . يا مسامين التين !!) .

. . .

اقترب (ع . . .) من القهوة فلمح على بابها بائع الصحف جاعلا صحفه بين قدميه وممسكا باحداها يعالج قراءة عناوينها ليختار منها ما ينادي به فيساعده

على ترويجها وكذلك لمح صبيا القهوة وهما واقفـان أمام بائع الصحف يتسليان بالنظر إلى الصور التى فى ظهر الصحيفة فأسرع (ع . . .) الخطى وفتح لهم القهوة فـدلفوا جميعـا إلى جوفهـا وشرع كل منهم يؤدى عمـله .

أخـذ أحـد الولدين يزيل ما علق بالمناضد والمقاعد من الغبـار ، وراح الثـانى يشعل الفحم فى المـوقـد ، وجعل بائع الصحف يقلب فى بضاعتـه ليترك لـ (ع . . .) نسخة من مختلف ما يحمل من مجلات وصحف .

أما (ع . . .) فقد انحنى ليشعل النـــار تحت خزان المياه التى ستصير بعد قليل مادة أساسية لـكل

ما تقدمه القهوة من ألوان المشروبات .

وفرغ بائع الصحف من عمله فوجه تحيته إلى (ع ...) كالعادة قائلا (صبحنا ع المعلم) فرد (المعلم) على تحيته بشيء من الاقتضاب والامتعاض فلم يرق ذلك لعم (شلبى) بائع الصحف فاندفع قائلا : مالك ياأخى ، الدنيا بخير ، أترك الهم ينساك ، وأن افتكرته ضناك ، ياما ارخصك ياحظ عند اللى اشتراك !!

فتبسم (ع ...) وقال : هيه ، فيه حاجة ثانية ؟ اسرع ياعم شلبي أحسن الصحف تبور !

فرد ، عم شلبى (وهو يلوح بيديه ...) تبور ! قال ابن عروس : يا شايل حط وارتاح ، وامش

خطاوى خطاوى ، رزقك من الله يوافيك لو كنت في بحر داوى !!

رنا (ع . . .) إلى (عم شلـــبى) وقال : الله ، الله ، كان ، كان ياعم شلبى ، دى مشعشعه معاك أوى ، وقال ايه كان ابن عروس ؟

فقـــال عم شلبي وهو يقهقه : ياعم خليها على الله ، هو حـد حياخـد منها حاجة ، دى دنيا مفروغ منهـا - وقال ابن عروس : مـين داداك داديه واجعل عيالك عبيده ، ومن عاداك عاديه روحـ !!

وحينئذ دخل أحد زبائن القهوة فسكت عم شلبى وأسكت ابن عروسه وانطلق إلى الشـارع صائحـا : (اخبار تمام النهارده فى الأهرام)

فرغ الغلام من تنظيف وترتيب أثاث القهوة وانتهى الولد الآخر من اشعال الفحم فأخذ منه حفنة وضعها فى مدفأة صغيرة ثم رش فوقها البخور وجعل يطوف بها جوانب القهوة وهو يردد : (صلى ع النبى ؛ النبى سعيد ؛ صلاة النبى أحسن) واخيراً وضعها على احدى الموائد . ثم ملأ عددا من الزجاجات ماء وطفق يرشه خلف الأبواب وهو يتمتم بكلمات تزيد فى الرزق ؛ وتجلب الرواد !!

وجاء زبون آخر فاتجه إلى المدفأة ؛ وجعل يداعب دخانها براحتيه موجها الدخان إلى صدره وهو يترنم ببعض الأدعية ؛ ثم خلع عمامته وأخذ يحركها فوق المدفأة حتى إذا امتلأت بالدخان

وضعها على رأسه وسار نحو الزبون الأول فجلس معه وشرعا يتحدثان عن البرد؛ وعن الأسعار وعن السياسة!!

وجاء آخران لهما هيئة الطلاب فأمسك (ع ...) الصحيفة التى كان يطالعها باحدى يديه وأخذ يصنع بالأخرى الشاى للزبائن ...

كان (ع ...) أحيانا ينسى ما فى الفرن من شاى وقهوة؛ ويمضى فى القراءة فكان ما ينساه يغلى ويفور على النار فيحدث صوتا مزعجا فيسرع (ع ...) ويرفع وجهه عن الصحيفة ويمد يده محاولا (انقاذ ما يمكن انقاذه!) ثم يعود إلى القراءة وهذا ما حدث هذه المرة؛ فتغامز الطالبان؛ ومال

أحد الاثنين الآخرين على رفيقه يقول له :
(مسكين . . . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)

وفرغ الطالبان من شرب الشاى ووجه أحدهما الحديث إلى (ع . . .) وكانا صديقين تجمع بينهما هواية الأدب ؛ وحرية الرأى ؛و بعض التشيع للهيئات والاحزاب

قال . . . ايه رأيك يا استاذ فى هذا المطر ؟

فأجاب (ع . . .) خير من عند الله . . .

وعاد الطالب إلى الكلام . . . وايه كان ؟

فقال (ع . . .) هو فيه ايه كان ؟

فغمز الطالب بعينه نحو الاثنين الآخرين ـ وكانا يميلان إلى معارضة الحكومة ـ وقال : ـ

لابد أن الحكومة مسئولة عن هذا المطر !!

فتبسم (ع...) وعاد إلى القراءة ؛ وهم الطالبان بالمسير ؛ وكان يتحتم عليهما أن يعرجا على البوفيه لينفذا إلى الباب الوحيد الذى تفتحه القهوة فى الشتاء فلما اقتربا من (ع . . .) توقف صديقه الطالب ووضع راحته على الصحيفة وقال : ياأخانا ؛ سيبك من هـذه الصحف ؛ ألم تنصحنا دائما بالقراءة فى صحيفة الحياة ؟

فأجاب (ع...) ولكنى لم أقصد مقاطعة قراءة الصحف !!

فمط الطالب شفتيه وقال وهو يلوح بيده :

هون عليك ؛ ماذا فيها ؟ إنها لا تساوى دقيقة

من الوقت الذى نضيعه فى قراءتها !

فرد (ع ...) متهكما : ولماذا ؟ ألأنها مضربة عن نشر ما تبعث به اليها من هذيان ؟!

قال الطالب : هذيان ؟ هذيان بالنسبة اليها لا بالنسبة إلى الحقيقة !

فقال (ع ...) ساخرا : سيدى ياسيدى ! ليس ذنبها ؛ انها لم ترق بعد لتفهم جليل أبحاثك !!

فأجاب الطالب : وفر سخريتك ؛ إنها تفهم ولكن تتغابى ؛ قل لى ماهى أهم المشاكل وأولاها بالعلاج ؟

فرنا إليه (ع ...) وقال : لعلها مشكلة الفقر كما تزعم !!

فصاح الطالب : وهل من شك فى هذا ؟ فماذا عملته صحافتنا لتنبيه الضمير الاجتماعى ؟ إنها تتحرج عن تطوير كلمة (إحسان) إلى كلمة (حق) ؛ كل ما تعنى به هو الجدل ؛ ولا شيء غير الجدل !

فقال (ع . . .) حاسب ياصاحبى إنها السلطة الرابعة !!

فعاد الطالب إلى صياحه قائلا : لن تكون كذلك إلا إذا عنيت بما يعج به العالم وما يضطرب به من أحداث ؛ ومرة اخرى لن تكون كذلك إلا إذا عبرت عن آمال الشعب وأمانيه ؛ ووجد قارئها نفسه وما تزخر به مصورة . . .

فقاطعه (ع . . .) بقوله : لا تنس أن الصحافة

هى التى علمتك كل هذا ؛ فلولا ادمانك القراءة فيها لعجزت ـ كأكثر زملائك ـ عن التفوه بكلمة واحدة مما تقوله الآن ؛ لنفرض أن أهم مشكلة هى الفقر : فهل قصرت الصحافة فى تحليلها وعلاجها ؟

فقال الطالب : مطلقاً ! بدليل أن أكثر مجلاتنا أوقفت صفحاتها على الكلام عن قصور الأغنياء وغص الفقراء بما فيها من بذخ وترف !!

فأجابه (ع . . .) وحتى هذه المجلات تسدى أجل الخدمات لهذه المشكلة ؛ إذ انها تفتح أعين الشعب ـ ولو عن غير قصد ـ اليست تقول له : أنظر نفقة طعام الفطور هنا تكفى لعشرات الأسر أياما بلياليها ؛ وأن ماينفقه هذا على لفائفه ينفقه غيره على

طعامه بضعة أيام؛ وثمة صحف أخرى لاتنى ولا تفتر عن نشر الكثير من الارقام التى تبين توزيع الثروات فماذا ترجو من الصحافة اكثر من هذا ؟ كن منصفاً واذكر أن صحافتنا أهم مظهر للنهضة الحديثة وأنها الملاذ إذا ألح علينا الذعر؛ والظل الوريف إن أدركنا التعب.

وبعد برهة قال الطالب: هكذا نحن - أنا وأنت - اتفقنا على ألا نتفق، إذا حافظت أنا تطرفت أنت وبالعكس، ولو انتصرت أنا الآن للصحافة لصببت أنت جام غضبك على وعليها فمتى نتفق ؟! ..

فأجاب (ع ...) إذا فرغنا أيها العزيز؛ إن

اختلافنا آية على أننا نعيش ، نظرة إلى بداية نهضتنا الأدبية ، يروعك ما أورثها اختلاف الكتاب من كنوز ...

فقال الطالب مقاطعاً : دعنا من ذكر الكتاب فهم كالصحافة لن يستحقون اسمهم حتى يتمثلون بكتاب الغرب ، فيكون لكل كاتب مسألته التى يطبعها بطابعه ، ويخصها بعنايته ، أما أن يكون الواحد منهم شاعرا وناقدا ومؤرخا وقصاصا فهذا غير مستساغ .

فرد (ع ...) : على مهلك ، ليس ذنبهم ياصديق ، بعث النهضة ، تمهيد الطريق ، كان يستلزم أن يكون الواحد منهم بناء ومناول وحفار ، وإلا

ماذا كان يعمل هـذا النفر القليل فى مثل ما يتطلبه عملهم الشـاق العسير ؟ قبل أن تذلهم بالمقـارنة بينهم وبـين الغربيين فكر فيما كان يـكتنف الادب من ظلام وركود ، وقبل كل شيء ، مدرستك ياأخ !

قال الطالب : على فـــكره ، ايه رأيك فى قصتى الأخـيرة ؟

فقال (ع . . .) ـ بغير اهتمام ـ لا بأس بها .

فصاح الطالب : لا بأس بهـا ، انها هائلة ، شفت كيف جعلت (العربجى) يوازن بين مرتبه ، وبين ما ينفقه سيده على (الحصان) وكـيف خـرج من هـذه المقارنة بان عنـاية سيده بالحصان تفـوق عنايته به ؟!.

فقال (ع . . .) وهذا عيبها الأول لأن هذا (العربجى) لم يستقم له بعد مثل هذا التفكير !

فأجاب الطالب : ومن يقول إن الفن لا بد أن يتفق مع الواقع ؟ أليس للفنان أن يجعل الأمور كما يريد ؟ أو ـ على الأقل ـ كما ينبغى . . .

وعندئذ دفعه زميله نحو الباب وهو يشير إلى ساعة القهوة ويقول :

خرفت أيها العزيز ، ودع هذه الفلسفة إلى المساء وهيا إلى المدرسة !

فأمن (ع . . .) على هذا الكلام قائلا :

صحيح ، عش أولا ، ثم تفلسف !!.

٢

دنت الساعة من التاسعة، وصحا الجو فهتكت الشمس حجابها، وألقت أشعتها الذهبية على افريز القهوة، وخرج (ع ...) من البوفيه وفتح أبواب القهوة، وأشار على الولدين بتهيئة الموائد والمقاعد على الافريز .

وكان بالقهوة نحو خمسة أشخاص يجمعون بين تقدم السن والفراغ الكئيب، كانوا يقطعون الوقت بالحديث عن الزمن الماضي وخيراته، عن البيض الذى أكلوه عشره بقرش واللحمة التى كانت

أقتها بثلاثة قروش ! وعطفوا على الزمن الحالى فأجمعوا على أن البركة قد انتزعت من كل شىء فيه وأن الساعة قد اقتربت ! . . أليس من علاماتها نطق الحديد ، وتبرج النساء ، وما إلى ذلك مما يجرى الآن ؟! ثم عرجوا على الأمراض فأكدوا أن هذا (الكيماوى) الذى تسبخ به الأرض اليوم هو سبب تلك العلل الفاشية بين الجمهور !! فلما بزغت الشمس تحول حديثهم على أمشير وحمقه ! ثم نهضوا لينعموا بالجلوس على الافريز فحدجهم أحد الولدين بنظرة مقت وقال بصوت خافت : الشمس ياتنابلة ! . .

. . .

ونجحت هذه الفخوخ التى هيأها الولدان على

شكل موائد فاقتنصت بعض المارة فنسى الولد أمر (التنابلة) وأسرع حيث الزبائن الجدد وهو يصيح : طيب ـ نعم ـ ايوه ! ..

وتدفق سيل آخر من الرواد فاشتد صياح الصبيين ، ونشط (ع ...) فجعل ينصت إلى صوتهما وهما يرددان : شاى ـ سحلب ـ شيشه ... ثم يسرع فى تهيئة هذه الطلبات للرواد .

وهدأت الجلبة قليلا فشرع (ع ...) يطوف بين الموائد ليطمئن على راحة الزبائن ، وليبعث النشاط والخفة فى خطوات الولدين ، وكان لا يفوته أثناء ذلك أن يتبسم للرواد ويحييهم ويرفع ما أمامهم من أدوات الشراب الفارغة حيث يسرع أحد

الولدين فيتناولها منه. كما كان ينظر فيما ينقصهم فيشير للصبي أن يأتى بالصحيفة لهذا؛ ويأمر الصبى الآخر أن يمسح المائدة أمام ذاك...

وجعل وهو يقوم بعمله هذا يراقب ويتأمل وجوه الجالسين؛ وما يرتسم عليها من حالات مختلفة تبعا لما كانت عليه أعصابهم فى المساء. فمنهم من كان مسرفا فى تناول (المكيفات) فبدأ تأثيرها واضحا عليه فى الصباح؛ فهو يقظ كالنائم؛ وحاضر كالغائب؛ عيناه نصف مفتوحتين؛ فاغر الفم شاحب الوجه؛ مرتعش اليدين؛ ينقض على القهوة أو الشاى فيفرغه فى جوفه معتقدا أن هذا هو السبيل الوحيد لتنبيهه!

ومنهم من قضى ليلة الامس ساهرا يعربد أو يقامر؛ فهذا لا يفتح عينيه الا ليغلقها فاذا أغلقها ومالت رأسه وقف بجانبه أحد الصبيين وصفق بيديه وقال : وحد الله ؛ فرفش ياعم . . . !

ومنهم من احتدمت بينهم المناقشة فى السياسة واستعر بينهم الجدال إلى حد يظن معه المرء أنهم عما قريب سيتشاجرون ؛ ويستبدلون لغة الكلام ؛ بلغة الأيدى والرءوس !

وبينهم القليل من اصحاب الأعمال ؛ وهؤلاء يندر أن يطول جلوسهم . فهم يتناولون مشروبهم ويلقون نظرة خاطفة على هذا البحر الزاخر ؛ وينصرفون وهم يعجبون من أمر هؤلاء الناس ؛ وكيف يبعثرون

وقتهم فى هذا العبث !!.

وليس أشق على نفس (ع ...) من منظر بعضهم وهم يبدون وكأنهم يزيدون عن الحاجة ويروح يتمنى لو كان له وقتهم هذا الذى يضيقون به ويتفننون فى التخلص منه ، كذلك يشق عليه أن يستدعيه البعض لا ليكلفه بشىء يختص بعمله وانما ليستفسر منه عن بعض الشئون السياسية ... كأنه يعرف أكثر من تلك الصحف التى بأيديهم .

ومصيبة هؤلاء أهون من مصيبة الذين يقحمون أنفسهم على الأدب ؛ حدث اثناء طوافه أن استوقفه بعض أصحابنا (الادباء) الذين يتناقشون ويتناحرون لا على مذهب حديث أو نحوه وانما

يدور كلامهم على فلان وفلان من رجال الأدب
وياليتهم وقد قصروا حديثهم على هذا عمدوا إلى
أفكار من يتحدثون عنهم وآثارهم؛ بل راح كل
واحد منهم ينتصر لأديب خاص فلا أدب الا أدبه
ولا كتب الا كتبه ؛ استوقفوا (ع . . .) ليحكم
بينهم من أحسن . . . العقاد أم طه حسين ؟ هيكل
أم أحمد أمين ؟ الحكيم أم تيمور أم المازنى ؟ وهكذا
بدون تحقيق أو ترو يريد كل منهم أن يظفر لأديبه
بالزعامة على هذه الطريقة الأرتجالية !!

ماذا يقول لهم وهو لا يستطيع أن ينظر إلى
الأمر كما ينظرون ؟ فلكل كاتب فى نفسه أثر ولكل
أديب ناحية خاصة ترضيه ؛ وإن قال إن أحدهم خير

الجميع لينفذ ويمضى إلى عمله فالذين خسروا القضية يحولون بينه وبين العمل طالبين البرهان ، وإن قال ما يعتقد وهو أن الجميع محسنون ويضيقون به ولا يستسيغون هذا الرأى لأن عقولهم أضيق من أن تسع الجميع !

تريث (ع ...) برهة ثم قال :

أفضل طريقة للموازنة ، هى أن نغمض أعيننا ونجعل كتابنا وآراءهم يمرون أمامنا . ثم نقف قليلا مع كل منهم ونتخيل أنه لم يقم بما قام ، ولم يكن كما كان ، فان وجدنا فيهم من كان وجوده وعدمه سواء نستثنيه من القائمة وهكذا ، ومن يبق بعد هذه الغربلة فهو خير الجميع .

وركن (ع . . .) بجانب مائدة (التنكيت) وأصحابها جماعة اشتهروا بتبادل النكات المرتجلة وهؤلاء من أحب الناس إلى قلبه ، وأقربهم إلى نفسه ، لأنهم يصدرون فيما يلقونه من نكات عن نفوس مرحة سمت على أثقال الحياة ، ويكشفون عما يملكون من طاقة وحيوية تفيض بالمرح والحياة ، كان إذا قفش أحدهم آخر فى أمر ما تدفق سيل النكات من الجميع . وكانوا يتوخون الحرص على موضوع (النكتة) فيلتزمونه ولا يحيدون عنه ، وأحيانا يضمنون نكاتهم حكما وأشعارا وأمثالا تزيدها حلاوة ، وتجعل لوقعها أثرا على النفوس فلا يملك المنصت اليهم نفسه

من القهقهة والسرور .

وقف (ع ...) يشهد فى لذة ونشوة وابلا من النكت ينصب على أحدهم وكان قد دفعه سوء الطالع إلى القول بأنه ترك زوجه تعجن تمهيدا للخبيز . لم يدع أصحابنا شيئا مما يستعمل فى العجن والخبز الا وأدخلوه فى نكاتهم ، كذلك حركات العاجن والخابز ، ودخان الفرن ، وحتى القمح وسنابله ، وحصده ومكاييله ، وكل شيء يتصل به ضمنوه تلك النكت التى تكاد تفوق (دائرة المعارف) فى الدقة والاستقصاء ! ..

...

ودقت الساعة عشر دقات ، وأقبل عم

(شلبي) ليأخـــذ صحفه ومجلاته التى تركها
فى الصباح - كعادته - ..

وقف عم (شلبي) بباب القهوة وأجال بصره فى الجالسين فلما وقع على جماعة المنكتين، اتجه نحوهم إلى أن اقترب منهم فاقتحمهم بعينيه ثم وضع راحته على أذنه وأنشد بصوت حزين متهدج :

ياأهل الغرام كلكم ، قولوا معايا آه
لولا الهوي ضرنى ، ما قلت منه آه
سألت من شيخ يقرأ فى كتاب الله
ترك الكتاب من يمينه والتفت قال لى
يا مغرم الشوق أنا الآخـر بنوح آه

وكان كلما توقف عند أحدى هذه الآهات

ردد الجميع معه قائلين (آه) ولحظ عم (شلبي) طربهم وشجوهم فجعل يحرك جبهته ، ويهز رأسه عند بعض الكلمات ، ويطيل الوقوف عند بعض الحروف ، وملكه التأثر فدمعت عيناه ، وفرغ من الموال فالتقط أنفاسه ، وتنهد أصحاب (النكت) ثم ألحوا عليه فى الجلوس معهم ففعل وأخذ يرنو بنظره إلى حائط القهوة كأنه يستلهمها ، وراح يدندن بمواويله ، والتف حوله أكثر الحاضرين ...

وترك (ع ...) زبائنه يحركون رءوسهم وصدورهم - وفقا لما يقتضيه موال عم (شلبى) - وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة ، وشرع يدون بها أفكاره وخواطره .

وأذن الظهر فانتهت نوبته الصباحية فودع القهوة بضجيجها وعجيجها وغادرها وهو يفكر فى (القهوة) وأثرها فى حياة الناس ويتأمل فى النتيجة لو لم تكن هذه (القهاوى) ؟

(انها بلاشك ستكون أحد أمرين ... يتماوج الناس فى الطرقات ، ويضيقون بوقتهم ، وتحين لهم الفرصة للنظر فيما ينقصهم وفيما هم عليه فيتجهون ... اما لتحسين حالهم وتحقيق أمانيهم واما إلى الهلاك والدمار !!) .

وكلا الأمرين ... أمرهما حلو !!

٣

ودع (ع ...) القهوة وهو يشعر بأن جهازه العصبي قد أشفى على التحطم؛ فقد كان يتحرى أثناء العمل أن يفصل بين شخصه الواضح الذى يروح ويجيء؛ ويعمل ويتحدث؛ وبين ذلك الكائن الخفى الذى يعيش فى أعماقه؛ ويختلط بدمه؛ ويسرح به فى وادي الفكر!

كان يقيم من نفسه رقيبا يقظا على ذلك الكائن يرده عن الظهور؛ ويجبره على الانزواء والسكون.

ومن ثم كانا ـ الرقيب والكائن ـ بمثابة روحين

متناقضين يسكنان جسده؛ ويرهقانه بتنافرهما وتناحرهما ؛ وقد جر عليه هذا البلاء أن ظروفه وتنشئته جعلتا أمر رزقه ليده؛ بينما كفايته وهوايته فى عقله؛ وظروفه تكرهه على الاتصال الدائم بالناس ؛ بينما طبيعته تميل إلى الوحدة والانطواء على النفس ؛ من أجل ذلك كان لابد من رقيب يذكره ويعمل على حفظ التوازن بينه وبين الناس .

كان على الرقيب أن يسيطر على حركات (ع ...) فلا يأذن لحركة تنم على التفكير أن تلوح عليه ؛ حتى هذه الحركات العادية التى يشترك فيها الناس جميعا كمرور اليد على الجبهة ؛ أو عبث الأصابع بالذقن ؛ أو التحديق فى ناحية ما ... هذه

الأشياء البسيطة وما شابهها يطبق عليها نظام (المحظورات) فلا تصدر ولا يفعلها (ع ...) الا عفوا وفى غفلة عن الرقيب ... فاذا تنبه الرقيب ارتفعت اليد عن الجبهة إلى الطربوش وانحدرت الأصابع من الذقن إلى رباط الرقبة ورمشت العين إلى ناحية أخرى !..

وكان عليه أن يقسر أعصابه ؛ ويكرهها على الرضى بما لا تحب ؛ والتغاضى عما يغضب ؛ واظهار الاعجاب ؛ أو الدهشة ؛ أو السرور وفقا لما يقتضيه الموقف مع جمهور القهوة ؛ كثيرا ما تبسم ونفسه تنفطر ؛ ووافق على غير ما يرى ؛ وكان يعجب لهذا التناقض والتنافر بين احساسه وتصرفاته ...

وكان إذا فتح صحيفة أو مجلة يدير أصابعه بين ثنايا الصفحات؛ فيجعل عند صفحة اذاعة الراديو أو صفحة الأسعار بعض أصابعه؛ ثم يمضي فى قراءة ما يحب؛ حتى إذا اقترب منه أحـــد يسارع إلى الصفحة التى بها الاذاعة أو الأسعار ليوهم الناظر اليه أنه انما ينظر فى براج المحطة لينتفع بذلك فى إدارة الراديو!..

وكذلك كان الحال فى كتابته؛ إذا خطرت له فكرة أو شيء من هذا القبيل؛ فتح دفتر حسابات القهوة؛ وأخذ فى تدوين فكرته على ورق منفصل أعده لذلك بين ثنايا صفحات الدفتر!..

يفعل هذا كله ليتقى ذلك الغمز الذى يأخذه

ـ أو يخيل اليه من وفرة شعوره بذاته أنه يأخذه ـ من كل مكان ؛ وليق نفسه شر تلك النظرات التى توجه اليه فلا يجد بينها نظرة عطف أو تشجيع ، بل يراها جميعا مزيجا من الرثاء والدهشة والاستنكار الأمر الذى يجعله يسرف فى تثنية أعصابه ليبدو سلوكه مطابقا للمألوف !

وليس يعلم غير الله عدد المرات التى حاول فيها أن يتخلص من هوايته فيعيش كما تعيش بيئته ويجعل مذهبه مذهبها فى تلقى الحياة والاستجابة إلى دواعيها .

وليس يعلم غير الله عدد المرات التى خيرته فيها الحياة بين الادب واللقمة ، فكان لا يملك إلا أن

يكون للاثنين ولو كلفه ـ وقد كلفه ـ ذلك أمر العذاب . كثيرا ما وازن بين ما أتاحه لنفسه من ثقافة وبين ما ينقصه وما ينبغي أن يحصله فيهوله بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، فيتمنى لو كان الأمر بيده لينفض عن كتفيه مثله وما رسم لنفسه ، ويريح ويستريح ؛ ولكن قوة خفية لا يعرف مدى سلطانها الا أمثاله ، كانت تدفعه وتسيره ، وتطبق على يده التى تحمل اللواء فلا يتمكن من التسليم .

كم من مرة تمنى لو كان ثمة شىء يتجرعه ! أو رقية يتعوذ بها ! ليبعد عن نفسه ذلك الكائن ويفرغ مما يعانيه من بلاء ؛ وكم من مرة خيل اليه أنه تحرر من نزعاته ورغباته ، ثم لا يلبث أن يرى كائنه

العجيب يخرج له لسانه ويقول : نحن مازلنا هنا !!

كذلك ليس يعلم غير الله كيف ومتى تسلل هذا الكائن إلى نفسه ! ظروفه ، بيئته ، تنشئته ، كل ما يحيط به لم يعده ولم يهيئه لذلك ! فكيف ومتى ؟ لماذا لم يكن كأبيه وأخوته وسائر أقاربه ؟ ولماذا لم تكن أمانيه كأمانيهم ميسور تحقيقها ؟ لماذا يرهق نفسه بالجرى وراء آمال مثالية كلما توهم أنه اقترب منها تنأى عنه ، وتخلفه يلهث ويتأهب لمواصلة الجرى ؟!

...

يفرغ من هذا العذاب إذا فرغ من (القهوة) حيث يخلى بين نفسه وبين الرقيب فيرخى أعصابه التى أعياها طول التثنى ، ويلتمس الراحة والصفاء فى

الخـــلاء ؛ حيث يمزج طويته بطوية الطبيعة فيجتلى من سحرها ومحـــاسنها ما يشرح صدره ؛ ويعيد الهدوء إلى أعصابه .

وعلى عادته انطلق إلى حـــدود المدينة حيث الحقول المنبسطة ؛ والاشجار القائمة كأنها حرس من العمالقة ؛ وقف على شاطىء النهر ليذب عن المدينة وحيث هـذا النهر المبارك الذى شق المدينة نصفين ففصل بين صخب المدينة وهدوء الريف . . .

وفجـأة لمح (ع . . .) عم (شلبى) وهو يسير بين أعواد القصب ثم رآه يتخير شجرة غليظة ؛ اتخـذ من جذعها خـدنا اعتمد عليه بظهره ؛ واتـكأ على راحة يده ؛ وراح يجيل النظر فيما يحيط به ؛ وبعد فترة

اعتدل عم شابى فى جلسته وأخذت يده تعبث فى جيبه ثم أخرجها ممسكة بوصة جعل يتحسس ثقوبها باصابعه ، ثم وضعها فى فمه ، وأرسل فى الفضاء نغما شجيا ...

اقترب (ع ...) من عم شلبى ثم دار فوقف خلفه يتمتع بترجيع عم شلبى لمواله البلدى (يامين يجيب لى حبيبى وياخد من عينى عين !)

ولم يشأ (ع ...) أن يفسد على تلك النفس المرحة لذتها . فكاد يحبس أنفاسه حتى انتهى عم شلبى من شدوه الذى كان مستغرقا فيه ، والذى كان يبدو كأنه ينتزع الالفاظ من قلبه ، حيث كان يئن عقب كل مقطع أنينا موجعا يجعل المنصت

اليه يرسل نفسه حسرات .

وعادت لعم شلبي نفسه فشعر بحركة خلفه فتلفت فألفى (ع ...) يرنو اليه فملكه الحياء؛ وأضطرب هنيهه ثم تماسك وقال :

لامؤاخـــذه يا أفندينا . ساعة لقلبك وساعة لربك !.

ثم أخرج من جيبه منديلا كبيرا ففرشه على الارض ودعا (ع ...) إلى الجلوس معه فجلس (ع ...) وهـــو يقول : ايه اللى جابك هنا ياعم شلبي ؟

فرد عم شلبي قائـــلا : اللى جابك جابنى يامعلى !! .

قال (ع . . .) : غرضى أفهم ؛ ليه تتعب نفسك فى الجو ده ؟ كنت أحسن تنام ؛ أو تستريح ! .

فأجاب عم شلبي : أنام ؟ حرام والله يا أفندينا إن الواحد ينام ولا يمتع نفسه بالمناظر البديعة اللى قدامه . . . دحنا حنام كثير ! !

وفرغ عم شلبي فطفق (ع . . .) يحدث نفسه : لو أوتى هذا الرجل بيانا ؟ أو لو كان يعرف التصوير ؟ أى قصيدة كان يكتبها ؛ أو أى لوحة كان يرسمها ؟ . لا شك ان القدر حين قسا عليه فلم يسعده بيراع أو ريشة ؛ أسعفته طبيعة نفسه الرحبة بفيض من الشعور الخفى الذى يحيل الضيق سعة ؛ والظلمة نورا ؛ ويجعل صاحبه ينشد الراحة

والهناء يبث نجواه فى ملكوت الطبيعة الفسيح .

...

وفى الطريق التقى (ع ...) بصديقه الطالب فانطلقا يتحدثان عن مداعبة العناصر للكون ؛ ويتأملان مشاهد الطبيعة ومواكبها

وبلغا سوق المدينة فاستلفت نظرهما ما يضطرب به من هرج ومرج ؛ فهولاء باعة الفاكهة يتفننون فى وصف بضاعتهم ؛ ولونها وطعمها ؛ وطرق جلبها وكيفية أكلها ! وأولئك فريق من (الفعلة) يتنافسون فى اظهار قوتهم برفع صدورهم ؛ وتقلص عضلاتهم ليدلوا على صلاحيتهم لرفع الانقاض وحمل الاثقال !

وطفق (ع ...) يشير إلى ما يكمن فى روح الشعب من مرح وسخرية واحتمال ؛ وأثر ذلك فى مناعته ومقاومته ، واحتفاظه بشخصيته . وتمنى لو عنى الادباء بهذه الخصال فصوروها وأبرزوها فى نتاجهم الفنى ليسترشد بها القادة فى توجيه الشعب ...

وعندئذ قال الطالب : على غرار ما يفعل كتاب الروسيا الذين استوحوا روح الشعب فجاء أدبهم صورة صادقة لآماله وألامه وبذلك ساهموا بحظ وافر فى الجانب الانسانى من قصر الأدب ، بعكس أدبائنا الذين إذا تلفتوا إلى الوراء استلهموا الجاحظ والمتنبى وأن تطلعوا إلى الامام سطوا على الغرب فقلدوا

أدباءه ... أما الطبيعة المصرية ومظاهرها والشخصية المصرية وخصائصها ...

فقاطعه (ع ...) : رجعت إلى ضلالك ؛ أما يكفى كتابنا تعبيد الطريق ؛ واستحضار المواد وعمل النماذج ، وتوجيه أمثالك ؟!

قال الطالب : لست أدرى ، أمشفق أنت أم معجب بهؤلاء الكتاب ؟!.

فأجاب (ع ...) هبنى معجباً ؟

قال الطالب : أرجو أن يطول عمرنا فأسألك بعد عشرين عاماً عن مصير هذا الاعجاب .

٤

وانتهى (ع . . .) إلى البيت ، وكعادته جعل يعبث فى كتبه التى يؤثرها فيدسها بين طيات الفراش وتحت الوسائد . . . وراح يقرأ !

كان يقـــرأ فى قصة راقته طرافتهـــا وأعجبـــه ما ترمز اليـــه .

كانت تصور رجلا صوفياً دخـل قـرية فأعجبه ما فيهـا ، ثم زار مقبرتها فقرأ على أحـد شواهدها : هذا قبر فلان . ألف كتاب كذا ، وكان عالمـا فاضلا ومات وعمره يومان . ورأى على قـبر آخر : هـذا

قبر فلان القائد العظيم الذى انتصر فى موقعة كذا ومات وعمره ثلاثة أيام . وفلان ملك الناحية ، وقد مات وعمره يوم . فعجب من هذا كله ، وتوجه إلى حكيم بالبلدة وسأله عن هذا اللغز الذى لم يفهمه فقال : إننا لا نعد من أيام حياتنا إلا الأيام السعيدة فقال الصوفى : إننى أود أن أموت ببلدكم ، وأرجو أن تكتبوا على قبرى : هذا قبر صوفى رحالة جاب الأقطار ، وزار الامصار ، ومات قبل أن يولد !!

وفرغ (ع ...) من القراءة فأوحت اليه القصة أن يستعرض ماضيه ، فمرت أمامه مواكب الذكريات ... رأى أنه يكاد يكون والصوفى

سواء ! بل لعل الصوفى يفضله بما جاب من أقطـار وما زار من أمصار !

لقد تزوج قبل أن يعرف لمـاذا يتزوج الناس ! فصار راعيا فى سن كان من حقه أن يكون فيه لاهيا ! ونظر فى الفلسفة قبل أن يقرأ كتب الهجاء وألف فى الأدب وهو لا يحذق النحو والأملاء ! وعلى هذا النحو بدأ جميع الامور من أواخرها ثم تنبه دفعة واحـدة على حقيقة مرة ، لقد رأى أنه انتهى من حيث يجب البـدء ! فابتدأ من حيث انتهى ! شرع يعالج معرفة ما فاته . بدأ يتفهم الأشياء من جديد ! ولـكن يهوله الزمن ! إنه فى الثلاثـين ! ترى هل فاته القطار ؟! هل سيموت قبل أن يولد ؟!

وراح يحاور نفسه : هل يستطيع أن يغير حياته ؟ هل يقوى على التخلص من ماضيه ؟ من له بجناح طائر يحلق به فى الفضاء فيصعد به إلى سماء النسور ، أو يلقيه فى أرض القطيع ؟ ! لقد مل هذا الوضع المشوش الذى يسلكه ، أفكلما حاول الصعود تمسك به الأرض ، فاذا سكن اليها تجذبه السماء ! لقد سلخ ثلاثين عاما من عمره ثم تيقظ فجأة على صوت ساخر يقول له : أنت كالسديم المضطرب العناصر تعيش فى دنيا كملت حياة أصحابها ، صحيح ان بها نسوراً تحلق ، وهواماً تزحف ، ولكن الجميع يسلكون طريقا واضحا معينا . فأما أنت ! أما أنت فضائع لاهنا ولا هناك !! أنت كالذرة الهائمة

ليس لك إلا القلق والحيرة والحرمان !!

فأى شيء ينقصه ليحقق أحلامه ؟ أو أية تضحية تلزمه لينسى هذه الاحلام ؟ !

وفيما كان غارقا فى ترديد أصداء هذه النجوى سمع هاتفا من أعماقه يقول : سلامتك أيها المسكين ! أنسيت أن العقل وهو فى مكانه يستطيع أن يجعل من الواحة روضة ، ومن الجحيم نعيما ؟

فأجاب : صحيح ان العقل يصنع العجائب ولكن ألا يجوز للمرء أن يضيق فى بعض الاحيان ؟!

قال الهاتف : فاذا ضاق فعليه أن يذكر : إن الحياة فى داخلنا لا فيما يحيط بنا . . .

هذا الكتاب

فى هذا الكتاب — كما فى كل كتاب — طائفة من الاخطاء بين نحوية واملائية ، وقد وقعت عليها بعد الفراغ من الطبع فهممت بتصحيحها — كالعادة ولكنى وجدت أنها من السهولة والقلة بحيث يعد التنبيه اليها اتهاما لسلامة ذوق القارىء ونباهته .

وفى هذا الكتاب — كما فى كل كتاب — غرض يرمى اليه المؤلف ، وغاية يقصدها ، وطريقة فى الاداء وتهيئة الجو يسلكها ، فهل لى أن التمس من الناقد أن يعفى نفسه ويعفينى من طريقة النقد المألوفة مثل (ورد كلمة كذا ، وصحتها هكذا) ؟ أقول

ما ذا على الناقد لو عدل عن هذا وعمد إلى الكلام عن طريقة المؤلف فى الاداء، ثم عن الغاية المقصودة، والغرض المنشود؟ فى رأيى أن هذا أجدى على القارىء، وأقوم سبيل لتوجيه الكاتب.

. . .

وفى هذا الكتاب يستجيب المؤلف لشعور استغرقه واستبد به حتى غام كل ما عداه، فلم يعد يرى أو يسمع أو يحس إلا هذه العاطفة المتأججة المتبادلة بينه وبين المهضومين والمنقوصين، والتى تلح عليه فتسوقه إلى محاولة التعبير عن آلامهم وتصوير حياتهم ... هؤلاء الذين تلفظهم الحياة على حواشيها وأطرافها، والذين تفصل بينهم وبين الحياة

الصحيحة هوة عميقة من الجشع والاثرة والاستبداد ويقعد بهم عن اجتيازها الجهل والضعف والاستخذاء

. . .

والمؤلف يعترف بأن حظ التفاهة والسطحية فى كتابه هذا يربو على حظ التجويد والعمق — ولكنه يأمل أن يكون هذا العمل تمهيداً لما بعده، وإرهاصا لما يعقبه، انه يأمل أن يسعده التوفيق فيصدق فى تصوير البائسين والمحرومين صدقا يستثيرهم، أوعلى الأقل يوضح السبيل للقادة المصلحين، ويزكى أمله ويشحذ همته ... أنه أحد هؤلاء المحرومين المهضومين فالقضية قضيته، ولا شىء يقرب بين النفوس مثل المصائب المشتركة..

وأخيراً فالفضل فى ظهور هذا الكتاب يرجع إلى عطف شخصين كريمين قد أخذا على عاتقيهما النهوض باعباء هذا الجيل ، وجعلا فى حسابهما تشجيع الأدباء والفنانين وهما :

معالى الأستاذ الكبير مصطفى عبد الرازق باشا

وعصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى

فالى مقامهما الجليل أرفع أصدق آيات الشكر والتقدير والولاء .

دمنهور عبد المعطى المسيرى

عنوان المؤلف




Bibliotheca Alexandrina
0415784